الثورة والثورة المضادة

تأليف
هربرت ماركوز

ترجمة
جورج طرابيشي

دار الآداب.. بيروت

ياعمال العالم اتحدوا
المكتبة التقدمية

الثورة والثورة المضادة

هربرت ماركوز

الثورة والثورة المضادة

نحو حساسية ثورية جديدة

ترجمة : جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣

(١)

اليسار في ظل الثورة المضادة

(١)

أدرك العالم الغربي مرحلة جديدة من التطـــور : فقد بات النظام الرأسمالي مضطراً ، حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه ، إلى تنظيم الثورة المضادة داخل حدوده وخارجها على حد سواء : وتلجأ هذه الثورة المضادة ، في مظاهرها الأكثر شططاً ، إلى فظاعات النظام النازي . ففي الهند الصينية واندونيسيا والكونغو ونيجيريا والسودان تجري على قدم وساق مذابح حقيقية تبيد إبادة جميع السكان الموصوفين بأنهم « شيوعيون » أو المتمردين على حكومات خاضعة للأمم الامبريالية . وفي أقطار امريكا اللاتينية الرازحة تحت نير دكتاتوريات فاشية وعسكرية ، يعم وينتشر اضطهاد غاشم . وقد أصبح التعذيب وسيلة عادية لـ « التحقيق » في كل مكان من العالم تقريباً . وفي أوج الحضارة الغربية تظهر إلى حيز الوجود من جديد وحشية الحروب الدينية ، وتتدفق اسلحة الأقطار الغنية بلا انقطاع على الأقطار الفقيرة لكي تستخدم في خنق تحررها القومي والاجتماعي على نحو متواصل . وحيثما تعثرت وسقطت مقاومة الفقراء ، خاض الطلبة النضال ضد العسكر والبوليس ، فبالمئات يتقدم هؤلاء الطلبة إلى المجزرة ، فمنهم من يواجه الغاز السام ، ومنهم من يقذف بالقنابل اليدويـــة ، ومنهم من يرمى به في السجون . وافتتاحاً لألعاب مكسيكو الأولمبية يُطارد ثلاثمئة ، منهم في الشوارع ، والرصاص ينهمر عليهم . وهم ما يزالون في الولايات المتحدة في الخط الأول من حركة الاحتجاج الجذري ، وتشهد على دورهم التاريخي مجازر جاكسون ستيت وكنت ستيت . ويدفع مناضلون سود حياتهم ثمناً لهذا

الاحتجاج : مالكولم إكس ؛ مارتن لوثر كينغ ، فريد هامبتون ، جورج جاكسون . والتركيب الجديد للمحكمة العليا يضفي طابع المؤسسة الرسمية على التقدم الذي تحرزه الرجعية . ويظهر اغتيال كيندي للعيان أن الليبراليين أنفسهم ليسوا بمنجى اذا ما حكم عليهم بأنهم ليبراليون اكثر مما ينبغي ...

إن الثورة المضادة وقائية إلى حد كبير بصفة عامة ؛ ولكنها وقائية بحتة في العالم الغربي . فلا وجود في هذا العالم لثورة فتية تستدعي القضاء عليها ولا لأية ثورة أخرى في الأفق . والحال أن الخوف من الثورة هو الذي يوحد مع ذلك بين المصالح ويربط شتى مراحل الثورة المضادة وأشكالها . هذا الخوف ينسحب على الاطوار كافة ، بدءاً من الديمقراطية البرلمانية إلى الدكتاتورية السافرة ومروراً بالدولة البوليسية . إن الرأسمالية تعيد تنظيم نفسها لتواجه خطر ثورة ستكون في حال نشوبها اكثر الثورات التاريخية جذرية . ستكون في حال نشوبها الثورة **التاريخية العالمية** الأولى حقاً .

إن من شأن الدولة الرأسمالية العظمى إذا سقطت أن تعمل بانهيار الدكتاتوريات العسكرية في العالم الثالث ، هذه الدكتاتوريات الخاضعة مطلق الخضوع لتلك الدولة العظمى . وفي هذه الحال لن تحل محلها حكومة بورجوازية « ليبرالية » — تقبل في معظم هذه البلدان بروابط استعمارية جديدة مع الدولة الاجنبية — وإنما ستحل محلها حكومة حركات التحرر التي اخذت على عاتقها إحداث تغيرات جذرية في النظام الاجتماعي والاقتصادي ، وهي تغيرات باتت ضرورية منذ أمد طويل . وسيغدو الطريق حراً كذلك أمام الثورتين الصينية والكوبية ، وستتحرران من حصار خانق ومن ضرورة الإبقاء على جهاز دفاعي متعاظم التكاليف يوماً بعد يوم ، وهي ضرورة خانقة بدورها . فهل سيكون في مستطاع العالم السوفياتي ان يبقى لحقبة طويلة من الزمن سليماً معافى ؛ وهل سيكون قادراً ، ولو لفترة زمنية قصيرة للغاية ، على « عرقلة » ثورة كهذه ؟

ناهيك عن أن الثورة ستكون مختلفة **نوعياً** ، في الأقطار الرأسمالية

عينها ، عن الثورات السابقة لها والمجهضة وهو اختلاف يتفاوت في بروزه تبعاً لتطور الرأسمالية غير المتساوي) . وسيكون في مقدور تلك الثورة ، في ميولها واتجاهاتها الأكثر تقدماً ، أن تحطم الاستمرارية القمعية التي ما تزال تربط ، بحكم المزاحمة ، إعادة البناء الاشتراكي بالتقدم الرأسمالي . فلولا هذه المزاحمة المخيفة ، لكان في مقدور الاشتراكية أن تتغلب على صنمية «القوى المنتجة» . ولكان في مقدورها أن تقلص رويداً رويداً من تبعية الانسان لأدوات عمله ، وأن توجه الانتاج نحو وضع حد للعمل المستلب ، مع تحاشيها التبذير والرق الناجمين عن تسهيلات مجتمع الاستهلاك الرأسمالي . وسوف تتوفر على هذا الأساس للافراد ، الذين يكونون قد تحرروا من العدوانية والقمع المرتبطين ارتباطاً حتمياً بالصراع في سبيل البقاء ، أقول : سوف تتوفر لهم القدرة على خلق محيط تقني وطبيعي غير مضطر إلى تأييد العنف والقبح والجهل والوحشية .

وتحت هذه السمات المألوفة لاشتراكية ما تزال رهن المستقبل ، نجد فكرة الاشتراكية المفهومة هي نفسها على أنها كلية مختلفة نوعياً . فالعالم الاشتراكي هو أيضاً عالم أخلاقي وجمالي : فالمادية الجدلية تضم المثالية إلى عناصر نظريتها وممارستها . والحاجات المادية السائدة وتلبيتها تُكيف — وتُراقب — تبعاً لمقتضيات الاستثمار . إن على الاشتراكية أن تزيد كمية السلع والخدمات المتاحة حتى تقضي على ذلك الفقر ، لكن على الإنتاج الاشتراكي في الوقت نفسه ان يغير نوعية الوجود : عليه أن يغير الحاجات عينها وتلبيتها . وفي هذه الحال ستصبح المواهب الخلقية والبسيكولوجية والجمالية والفكرية ، المنفية اليوم إلى ميدان ثقافي منفصل عن الوجود المادي ومتعالٍ عليه — هذا إذا لم تذبل وتذوكلية — عوامل لها دورها في الانتاج المادي ذاته .

إذا بدأ هذا التصور المتكامل للاشتراكية يوجه النظرية والممارسة ويرشدهما في أوساط اليسار الجذري ، فهذا لأنه الجواب التاريخي على تطور الرأسمالية الراهن . فمستوى الانتاج الذي توقعه ماركس لبناء مجتمع اشتراكي

قد تم إدراكه منذ زمن بعيد في البلدان الرأسمالية الأكثر تقدماً من وجهة النظر التقنية . والحال أن هذا النجاح بالذات (« مجتمع الاستهلاك ») هو الذي يسهم في الإبقاء على علاقات الانتاج الرأسمالي ، وفي توفير التأييد الشعبي لها ، وفي تجريد المحركات والدوافع الأساسية للاشتراكية من اعتبارها وحظوتها . ان الرأسمالية غير قادرة ولن تكون بالتأكيد قادرة أبداً على تحقيق الانسجام بين علاقاتها الانتاجية واستطاعتها التقنية ؛ وسوف تقرع المكننة ، التي ستتمكن تدريجياً من إقصاء عنصر العمل البشري عن عملية انتاج السلع المادية ، ناقوس النظام في خاتمة المطاف [1] . لكن ما يزال في مستطاع الرأسمالية أن ترفع إنتاجية العمل بتوسيعها نطاق تبعية السكان التي هي بمثابة أساس لها . والواقع أن المعادلة : تقدم تقني — ثروة اجتماعية اعظم ، تعني أن توسع نطاق العبودية هو قانون التقدم الرأسمالي . فالاستغلال يبرر ذاته بذاته إذ يطبل ويزمر لزيادة السلع والخدمات زيادة متصلة — أما ضحاياه فهم بمثابة نفقات عامة ، محض حوادث عارضة على الطريق نحو حياة أفضل .

لا مجال إذن لأن تأخذنا الدهشة إذا وجدنا الناس غير منفتحين ، إن لم نقل معادين ، للاشتراكية ، حيثما أبقت البنية التقنية الرأسمالية على مستوى من الحياة مرتفع نسبياً وعلى بنية للسلطة آمنة من الرقابة الشعبية وفي منجى منها . وفي الولايات المتحدة حيث تتألف غالبية ما يمكن أن نطلق عليه اسم « الشعب » من ذوي « الياقات الزرق » [2] ، ينصب ذلك العداء على اليسار القديم والجديد على حد سواء . أما في فرنسا وايطاليا حيث ما تزال التقاليد الماركسية لحركة العمل على قيد الحياة ، فيحتفظ الحزب والنقابات الشيوعية بولاء الشطر الاعظم من الطبقة العاملة . ترى هل يعود سبب ذلك إلى الشروط الحياتية المتواضعة لهذه الطبقة ، أم ايضاً إلى السياسة الشيوعية وإلى برنامجها

(١) راجع كارل ماركس : « أسس نقد الاقتصاد السياسي » ، باريس ١٩٦٨ ، المجلد ٢ ، ص ٢١٥ و ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) هم عمال الصناعة ، وذلك بالمقارنة مع « ذوي الياقات البيض » وهم الإداريون والتقنيون والبيروقراطيون . « المترجم »

في الديمقراطية وهو برنامج الحد الادنى الذي يعد بانتقال سلمي (نسبياً) إلى الاشتراكية ؛ مهما يكن من أمر ، فإن هذه السياسة تلوِّح لأنظار الطبقة العاملة بوعد بتحسين جدي لوضعها الاجمالي ، على حساب آفاقها ومنظوراتها في التحرر . وليس الولاء للاتحاد السوفياتي هو وحده الذي يقرِّب الشقة ويخفف الفرق بين المجتمع القائم والمجتمع الجديد . بل تلعب أيضاً دورها في هذا المجال مبادىء استراتيجية الحد الأدنى التي تُبرر ويذاد عنها بمثابرة: وهكذا لا تعود الاشتراكية تبدو على أنها النفي القاطع للرأسمالية . ان هذه السياسة ترفض — ومضطرة الى أن ترفض — بتناسق وتلاحم تأمين استراتيجيةاليسار الجديد الثورية التي يواكبها تصور للاشتراكية باعتبارها انقطاعاً في استمرارية التبعية ، انقطاعاً على دفعة واحدة ، انبجاساً لحرية تقرير المصير الذاتي بصفتها مبدأ إعادة البناء الاجتماعي . لكن الاهداف الجذرية والاستراتيجية الجذرية على حد سواء محصورة بين جماعات أقلوية صغيرة تنتمي اقتصادياً إلى الطبقة المتوسطة أكثر مما تنتمي إلى البروليتاريا ، بينما غدا قسم كبير من الطبقة العاملة طبقة من طبقات المجتمع البورجوازي .

خلاصة القول ، إن أعلى درجة في التطور الرأسمالي ، في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، تناظرها وتقابلها ضحالة في الطاقة الثورية . وليست هذه الفكرة بالجديدة ، وماكانت لتستدعي شرحاً مسهباً لولا أن الظواهر (الواقعيـــة بما فيه الكفاية بصفتها ظواهر !) تخفي واقعاً مغايراً جداً . والدينامية الداخلية للرأسمالية تغير ، طرداً مع ما يطرأ عليها من تبدلات بنيوية ، النموذج الثوري : فبدلاً من تقليص الأسس الجماهيرية الكامنة للثورة توسعها او تستدعي في الوقت نفسه بعث الأهداف الجذرية للاشتراكية بدلاً من أهداف الحد الأدنى .

وحتى نؤول على الوجه الصحيح العلاقة التناحرية بين النمو الهدام للرأسمالية والأفول الظاهري والفعلي) للطاقة الثورية، ينبغي أن نقوم بتحليل شامل لاعادة تنظيم الرأسمالية على أسس أمبريالية جديدة جامعة . وثمة مساهمات

قد أغنت من الآن هذا التحليل[1] . وسأكتفي هنا ، إستناداً إلى هذه المادة ، بمحاولة تركيز المناقشة على منظورات التغير الجذري في الولايات المتحدة .

(٢)

من البديهيات التي لا تحتاج إلى بيان أن الوعي المتوفر لغالبية الطبقة العاملة هو وعي غير ثوري . صحيح أن الوعي الثوري لم يتجل قط إلا في موقف ثوري ، لكن الفارق الآن هو أن وضع الطبقة العاملة في مجمل المجتمع يتنافى والوصول إلى مثل هذا الوعي . ليس إندماج غالبية الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي ظاهرة سطحية ، فجذوره كامنة في البنية التحتية بالذات ، في الاقتصاد السياسي للرأسمالية الاحتكارية : مزايا ومكاسب ممنوحة للطبقة العاملة المتروبولية بفضل الأرباح الفائضة ، والاستغلال الاستعماري الجديد ، والميزانية العسكرية ، والمعونات الحكومية الهائلة . ولعل التوكيد بأن لدى هذه الطبقة شيئاً آخر تخسره غير أغلالها توكيد مبتذل ، ولكن هذه هي عين الحقيقة .

ان لمن السهل إلى حد اكثر مما ينبغي رد حجة الاندماج التدريجي للطبقة العاملة بالمجتمع الرأسمالي المتقدم بالتصريح بأن هذا التغير لا يتناول سوى مضمار الاستهلاك وحده ولا يؤثر بالتالي على « التعريف البنيوي » للبروليتاريا[2]

---

(١) انظر على سبيل المثال باران وسويزي : « الرأسمالية الاحتكارية ، دراسة عن المجتمع الصناعي الأميركي » ؛ جوزيف م. جلمان : « الازدهار في أزمة » ؛ غابرييل كولكو : « الثروة والسلطة في أميركا » ؛ هاري ماغدوف : « عصر الإمبريالية » اقتصاد السياسة الخارجية للولايات المتحدة » ؛ ج. وليم دامهوف : « من يسيطر على أميركا ؟ » . ويتفق اقتصاديون « بورجوازيون » ، من أمثال أ. أ. بيرل وج. ك. غالبريث بوجه خاص ، مع الماركسيين ، على الأقل بصدد الوقائع . ويؤلف كتاب موريس زيتلن ، « المجتمع الأميركي » ، مختارات ذات قيمة تمثيلية .

(٢) انظر من بين انتقادات أخرى عديدة انتقاد أرنست ماندیل : « العمال والثورة الدائمة » في « إحياء الاشتراكية الأميركية » ، المنشور تحت إشراف جورج فيشر والصادر عن منشورات جامعة أوكسفورد ، نيويورك ١٩٧١ ، ص ١٧٠ وما يليها .

فالاستهلاك عنصر مركب من عناصر الوجود الاجتماعي للإنسان ، وبصفته هذه يحدد جزئياً وعي الإنسان الذي هو بدوره واحد من العوامل التي تعين سلوكه وموقفه سواء في العمل أم في وقت الفراغ . والطاقة السياسية للتطلعات إلى الرفاه ورغد العيش معروفة جيداً . واستبعاد مضمار الاستهلاك في أوسع مظاهره الاجتماعية وأرحبها من التحليل البنيوي مناقض لمبدأ المادية الجدلية . نحن لا ننكر مع ذلك أن اندماج اليد العاملة المنظمة ظاهرة سطحية ، ولكنه بمعنى من المعاني ظاهرة مغايرة تماماً : فهو يحجب الميول الفاعلة باتجاه الانفصال والابتعاد عن المركز ، وإن يكن هو نفسه تعبيراً عنها . وهذه الميول الفاعلة باتجاه الابتعاد عن المركز لا تؤدي عملها **خارج نطاق** المضمار المندمج ، وإنما في قلب هذا المضمار بالذات يخلق الاقتصاد الاحتكاري شروطاً ويوجد حاجات تهدد الهيكل الرأسمالي بالانفجار . وتمهيداً لهذه التأملات ، نتساءل حول صحة هذا الزعم الكلاسيكي القائل ان **غنى** الرأسمالية الماحق سيؤدي إلى انهيارها . فهل سيكون **المجتمع الاستهلاكي** مرحلتها الأخيرة ، حافر قبرهـــا ؟

لست أدري اين نستطيع أن نجد دعامة نبني عليها جواباً ايجابياً . ففي المرحلة العليا من الرأسمالية تبدو الثورة — على ضرورتها اكثر من أي وقت مضى — بعيدة الإحتمال كل البعد . وإنه لمما يزيد ، بالفعل ، من ضرورتها أن النظام القائم لا يفلح في الدوام والاستمرار إلا عن طريق التدمير الشامل للموارد ، وللطبيعة ، وللحياة البشرية ، وأن الشروط **الموضوعية** لتحقيقها متوفرة على وجه العموم . وهذه الشروط هي كما يلي : غنى جماعي كاف للقضاء على الفقر ، مهارة تقنية كافية لتوجيه استخدام الموارد نحو هذا الهدف بصورة نظامية ، طبقة حاكمة تبدد القوى المنتجة وتعيقها وتبيدها ، صعود قوى مناوئة للرأسمالية في العالم الثالث تقلص نطاق احتياطي الاستغلال وخزانه ، واخيراً طبقة عاملة كثيرة التعداد ، محرومة من السيطرة على وسائل الانتاج ، ومواجهة لطبقة حاكمة قليلة التعداد وطفيلية . لكن هيمنة الرأسمال

الممتدة إلى جميع أبعاد العمل ووقت الفراغ تتحكم ، بالمقابل ، بالسكان الخاضعين لها بواسطة السلع والخدمات التي تقدمها ، وبواسطة جهاز سياسي عسكري وبوليسي ذي فعالية رهيبة . ولا تجد الشروط الموضوعية ترجمتها في وعي ثوري ؛ فالحاجة الحيوية المقموعة إلى التحرر تظل عاجزة . ويتخذ صراع الطبقات أشكال احتجاج من النمط « الاقتصادي النزعة » ؛ فالاصلاحات المكتسبة لا تعود خطى إلى الأمام باتجاه الثورة — والعامل الذاتي لا ينمي يتناءى .

بيد أنه من الخطأ مع ذلك تفسير هذا التباين بين ضرورة الثورة وامكانيتها على أنه محض اختلاف بين الشروط الذاتية والموضوعية . فالشروط الذاتية تواكب إلى حد بعيد الشروط الموضوعية . ذلك أن الوعي الاصلاحي أو الإمتثالي يناظر ويقابل المرحلة التي وصلت إليها الرأسمالية وكلية حضور بناها السلطوية ؛ ومثل هذا الموقف يركز الوعي السياسي والتمرد في جماعات أقلوية غير مندمجة تنتمي إلى عالم العمل (ولا سيما في فرنسا وإيطاليا) ، ولكن أيضاً إلى الطبقات المتوسطة . إذن ، إنما في الشروط الموضوعية عينها ينبغي البحث عن حل لمفارقة الثورة « المستحيلة » .

إن إعادة توطيد أركان الرأسمالية وأسس الامبريالية الجديدة ، التي بدأت عقب الحرب العالمية الثانية ، لم تبهر أنفاسها تماماً بعد — وهذا بالرغم من الهند الصينية ، والتضخم ، والأزمة النقدية العالمية ، والبطالة المتعاظمة في الولايات المتحدة الاميركية . وما يزال النظام قادراً ، بفضل قوته الاقتصادية والعسكرية ، على « تسيير » المنازعات التي تحتدم في داخله وخارجه على حد سواء .. وهذه القدرة المنقطعة النظير لرأسمالية القرن العشرين هي بالتحديد التي ستنجب ثورة القرن العشرين ، ومع ذلك ستكون قاعدتها ووجهتها واستراتيجيتها مختلفة كل الاختلاف عن قاعدة الثورات المتقدمة عليها ووجهتها واستراتيجيتها ، وأخص بالذكر الثورة الروسية التي كانت سماتها الكبرى كما يلي : كانت موجهة من قبل « طليعة واعية ايديولوجياً » ، وكانت « أداتها » الحزب الجماهيري ، وكان هدفها الأول « النضال في سبيل

سلطة الدولة » .

« ليس من قبيل المصادفة إذا كان هذا النمط من الثورة قد عجز عن التحقق في الغرب . وبالفعل ، لا يكفي ان نقول ان النظام الرأسمالي قد أدرك فيه عدداً كبيراً من الأهداف التي ما تزال تمثل نابض الثورات في الأقطار المتخلفة ، بل ينبغي أن نضيف أنه قادر ، بفضل نمو المداخيل المطرد وتعدد أدوات التوسط وعلاقات الاستغلال الأممية ، على أن يقدم لغالبية الناس امكانية الاستمرار في الحياة ، وفي كثير من الاحيان حلاً جزئياً لمشكلاتهم المباشرة »[1] .

إن التلبية المتنامية للحاجات ، حتى بما فيها غير حاجات أود العيش والاستمرار في الحياة ، تغير ايضاً طابع الاختيار الثوري : فالمطلوب الآن بناء نظام اجتماعي يكون قادراً :

« لا على أن ينتج اكثر ويوزع أفضل فحسب ، بل أيضاً على أن ينتج سلعاً مختلفة بطريقة مختلفة ، وعلى أن يعطي العلاقات بين البشر شكلاً جديداً »[2] .

إن الأسس العامة التي أوجدتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر العلاقة بين الرأسمال والعمل لم يعد لها من وجود في متروبولات الرأسمالية الإحتكارية (وهي تتآكل شيئاً فشيئاً في الاقطار الرأسمالية الاكثر تأخراً) ، وثمة أساس جديد في سبيله إلى أن يتكون ، هو بمثابة توسيع وتحويل للأساس التاريخي بفعل دينامية نمط الانتاج .

إن المنشآت الرأسمالية الخاصة في جميع فروع الاقتصاد تجد نفسها ،

---

(١) لوشيو ماجري : « برلمانات أم مجالس » ، في « المانيفستو » ، باريس ١٩٧١ ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣٣ .

في المرحلة الأخيرة من التركز الاقتصادي والسياسي ، وقد باتت تخضع تدريجياً لمقتضيات الرأسمال منظوراً إليه في مجمله (GesamkaPital) . ويتموضع هذا التنسيق على مستويين لا يقبل أحدهما انفصالاً عن الآخر : مستوى السيرورة الاقتصادية العادية في ظل نظام المزاحمة الاحتكارية (نمو الرأسمال الدائم ، الضغط على معدل الربح) ، ومستوى « الاقتصاد الموجه »[1] ويترتب على ذلك أن شرائح لا تني تزداد تعداداً من الطبقات المتوسطة ، كانت فيما سبق مستقلة ، توضع مباشرة في خدمة الرأسمال ، وتنصرف إلى إنشاء ومراكمة فضل قيمة ، مع تنحيها في الوقت نفسه عن الإشراف على وسائل الانتاج . ويجند « القطاع الثالث » (قطاع إنتاج الخدمات) ، الذي لا غنى عنه منذ طويل الأمد لتراكم الرأسمال وإعادة إنتاجه ، يجند جيشاً عرمرماً من المستخدمين الأجراء . وفي الوقت نفسه يجذب الانتاج المادي الذي لا يني طابعه التكنولوجي يتأكد ويتعمق باستمرار ، يجذب الانتلجانسيا الوظيفية إلى هذه السيرورة . هكذا يتسع نطاق قاعدة الاستغلال ، ويتخطى إطار الصناعة والتجارة ، مثلما يتخطى الطبقة العاملة المؤلفة من ذوي « الياقات الزرق »[2] .

---

(١) راجع كتاب سيمور ملمان « رأسمالية البنتاغون » ، بيد أن مصطلح « الاقتصاد الموجه » يهول من شأن استقلال الدولة تجاه الرأسمال .

(٢) سيرج ماليه هو الذي افتتح المناقشة في كتابه « الطبقة العاملة الجديدة » ، منشورات لوسوي ، باريس ١٩٦٣ ، والمعاد طبعه في عام ١٩٦٩ . وبالفعل ، إن الكتابات حول هذا الموضوع في تكاثر مطرد ، ومن الممكن الرجوع إلى : ج. م. باديش « البنية المتغيرة للطبقة العاملة » ، نيويورك ١٩٦٤ ؛ ستانلي آرانوفيتش « هل في الولايات المتحدة طبقة عاملة » في « إحياء الاشتراكية الأميركية » ، المصدر الآنف الذكر ؛ أندريه غورز « التقنية والتقنيون وصراع الطبقات » في « الأزمنة الحديثة » ، آب – أيلول ١٩٧١ . ويجدر التنويه بوجه خاص بأهمية التمييز الذي يقيمه غورز بين الشغيلة التقنيين – العلميين الذين يساهمون في الإشراف على سيرورة الإنتاج ويؤلفون في الواقع جزءاً من الإدارة وبين الشغيلة الخاضعين لهذا التراتب . انظر أيضاً هربرت جنتيس « الطبقة العاملة الجديدة والشباب الثوري » في « الثورة الاشتراكية » ، سان فرانسيسكو ، أيار – حزيران ١٩٧٠ . =

وقد اعترفت الاستراتيجية الشيوعية منذ زمن بعيد بهذه التغيرات الحاسمة في انحلال الطبقة العاملة. وقد اقتبسنا النظرات والآراء التالية من مناقشة الاطروحات المقدمة إلى المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الفرنسي :

« ... لم يخلط الحزب الشيوعي قط بين الانتماء إلى الطبقة العاملة وبين العمل اليدوي ... فمع التقدم الراهن لتقنيات ونمو عدد الشغيلة غير اليدويين ، تزداد بالفعل صعوبة الفصل بين العمل اليدوي والفكري ، وان كان نمط الانتاج الرأسمالي يحاول الإبقاء على هذا الانفصال » .

ويضيف هذا النص أن مفهوم « الشغيل الجماعي » لدى ماركس لا يجوز الخلط بينه وبين مفهوم الطبقة الكادحة التقليدية (أي الطبقة العاملة) ، إذ يمكن أن يضم « الشغيل الجماعي » ، بالفعل ، أجراء غير عمال : باحثين ، مهندسين ، ملاكات ، الخ .. والطبقة العاملة أوسع وأرحب اليوم بكثير مما كانت عليه ، وهي « لا تتألف من بروليتاريي الحقول والمصانع والورشات الذين هم بمثابة القلب منها فحسب ، بل أيضاً من مجمل الشغيلة الذين يتدخلون مباشرة في تهيئة الانتاج المادي وتنفيذه » . ومع تحول الطبقة العاملة هذا ، لا تندرج فيها من اليوم فصاعداً شرائح جديدة من المستخدمين الأجراء فحسب ، بل أيضاً « فروع نشاط ما كانت تؤلف سابقاً جزءاً من قطاع الانتاج المادي والتي تتلبس الآن طابعاً انتاجياً »[1] .

« ما عادت سلطة الرأسمال الاحتكاري ، تتجلى بشكل

= وما كتب حتى الآن عن اليسار الجديد وعن المرحلة الراهنة للرأسمالية يكفي وحده ليملأ مكتبة كاملة . وإني لأؤثر ألا أذكر هنا سوى كتاب واحد هو في رأيي أوضح الكتب وأكثرها استقامة وأعمقها نقداً وألطفها إلى النفس ، وهو من تأليف اثنين من المناضلين : « تاريخ بلا حظوة : اليسار الجديد والرأسمالية الجديدة » بقلم غريـغ كالفيرت وكارول نايمان ، نيويورك ١٩٧١ .

(١) « فرنسا الجديدة » ، ٢٨ كانون الثاني ١٩٧٠ .

أساسي اليوم في علاقات العمل ، بل خارج نطاق هذه العلاقات ، في السوق وفي جميع ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية ... ولا يجند الرأسمال الاحتكاري ضحاياه من بين أولئك الذين هم تابعون له تبعية مباشرة فقط ، بحيث نجد أنفسنا جميعاً ، في لحظة من اللحظات ، مأخوذين في شبكة العلاقات الرأسمالية — وهذا من دون أن نستبعد أو ننفي واقع أن ضحاياه التابعين له تبعية مباشرة قد لا يكونون احياناً سوى ضحايا لم ينلهم اذى شديد ، بل ربما أيضاً شركاءه المستفيدين منه وحلفاءه الممكنين في بعض الحالات »[1] .

ان الأفق الأرحب والأوسع للاستغلال ، وضرورة دمج سكان إضافيين به داخل البلاد وخارجها على حد سواء ، يفسران ميل الرأسمالية الاحتكارية واتجاهها الغالب : تنظيم المجتمع بأسره لصالحها وعلى صورتها .

أما المواجهة فهي بين قوة تسيير وتنظيم الرأسمال الجماعي وبين القوة المنتجة (قوة العمل الجماعية أو « الشغيل الجماعي ») : وبذلك يمشي كل فرد مجرد جزيئة ، محض ذرة في كتلة السكان التي تخلق ، هي المحرومة من الإشراف على وسائل الانتاج ، إجمالي فضل القيمة . وضمن هذه الكتلة تلعب الانتلجانسيا دوراً حيوياً ، لا في سيرورة الانتاج المادي فحسب ، بل أيضاً في التلاعب والتحكم ، اللذين لا ينى طابعهما العلمي يتأكد ويتعزز ، بالاستهلاك وبالسلوك « المنتج » .

تجذب سيرورة تراكم الرأسمال إلى مدارها شرائح لا تني تتسع باطراد من السكان ، وهي تتخطى نطاق الطبقة العاملة المؤلفة من ذوي « الياقات الزرق » . وكان ماركس قد توقع التغيرات البنيوية التي توسع قاعدة

---

(١) ليليو باسو : « حول نظرية الصراعات السياسية » ، فرانكفورت ١٩٦٩ ، ص ١٠، ١٣ (النص من عام ١٩٦٢) .

الاستغلال عن طريق إدراجها فيه يداً عاملة وخدمات كانت تعد « غير منتجة » في الماضي :

« إن العنصر الحقيقي في سيرورة العمل الجماعي ليس من الآن فصاعداً الشغيل الفردي بقدر ما انه قوة العمل المنظمة اجتماعياً . وتساهم قوى العمل الماثلة المختلفة التي تؤلف الجهاز الانتاجي في مجمله ، تساهم في الإنتاج المباشر للبضائع (أو لنقل بالأحرى المنتجات) بطرق مختلفة غاية الاختلاف . فهذا الفرد يعمل بيديه ، وذاك يعمل بفكره كمهندس أو مدير أو تقني الخ ، وهذا مناظر وذاك عامل يدوي له دوره المباشر أو مجرد عامل مياوم . وهذا بحيث ان المفهوم المباشر للعمل المنتج يشتمل اكثر فأكثر على المزيد من وظائف قوة العمل ، كما يشتمل مفهوم الشغيل المنتج اكثر فأكثر على المزيد من الشغيلة المتباينين . واستغلال الرأسمال لهم مباشر ... والنشاط المتشارك في الشغيل الجماعي يترجم مباشرة في ناتج جماعي هو في الوقت نفسه كلية من البضائع ، وليس بذي أهمية أن تكون وظيفة الشغيل الفردي ، الذي هو محض عضو في ذلك الشغيل الجماعي ، قريباً بقدر أو بآخر من العمل اليدوي المباشر .. إن نشاط قوة العمل المنظمة هذه هي استهلاكها المنتج المباشر من قبل الرأسمال — تموضع ذاتي للرأسمال ، خلق مباشر لفضل قيمة ... » [1] .

إن « مفهوم العمل المنتج يتسع بالضرورة » إذن في الدينامية الداخلية للرأسمالية المتقدمة ، ويتسع معه مفهوما الشغيل المنتج والطبقة العاملة بالذات . وليس التغير بكمي محض ، بل هو يشمل عالم الرأسمالية قاطبة .

---

(١) كارل ماركس : « حصيلة سيرورات الإنتاج المباشرة » ، صيغة أولى لفصل سادس من « الرأسمال » ، فرانكفورت ١٩٦٩ ، ص ٦٥ .

إن العالم الموسع للاستغلال هو كلية، جملة من ميكانيكيات : انسانية اقتصادية ، سياسية ، عسكرية ، تربوية . وهو يخضع لتراتب هرمي من « المهنيين » لا يني يتخصص اكثر فأكثر باطراد : مدراء ، سياسيون أو عامون ، منصرفون إلى الحفاظ على دوائر نفوذهم وإلى توسيعها ، وعاملون جميعاً ، وان كانوا بوجه الاجمال في حالة مزاحمة فيما بينهم ، في سبيل المصلحة التي لا تعلو عليها مصلحة ، مصلحة رأسمال الأمة في جملتها ، الأمة بصفتها رأسمالاً ، رأسمالاً امبريالياً . لا مرية في أن هذه الامبريالية تختلف عن الامبرياليات التي سبقتها : فموضوع الرهان يتجاوز المقتضيات الاقتصادية المباشرة والخاصة . وإذا كان أمن الأمة يستدعي الآن تدخلات عسكرية واقتصادية و « تقنية » ، حين تعجز الفئات الحاكمة الأهلية المحلية عن تصفية حركات التحرر الشعبي ، فهذا لأن النظام لم يعد قادراً على إعادة إنتاج نفسه بمقتضى اولياته الاقتصادية الذاتية . ولا مفر في هذه الحال من ان يُعهد بهذه المهمة إلى دولة تواجه ، على المسرح الدولي ، معارضة مناضلة « من تحت » تشعل بدورها فتيل المعارضة في المتروبولات . واليوم إذ تفضي اللعبة القاتلة ، لعبة سياسة القوة ، إلى تعاون فعلي وإلى تقاسم ناجع لمناطق النفوذ بين مدار اشتراكية الدولة ومدار رأسمالية الدولة ، تتعرض هذه الدبلوماسية للخطر المشترك الصاعد من تحت . لكن لا يوجد « تحت » معذبو الارض وحدهم ، بل هناك ايضاً الكائنات البشرية المتمتعة بأكبر الامتيازات وبأحسن الثقافة والخاضعة للرقابة والقمع كما تخضع الأشياء .

إن التفتيت المفرط أمر مألوف في قاعدة الهرم . فالفرد يتحول قلباً وقالباً ، روحاً وجسماً ، إلى أداة ، بله إلى جزء من أداة . وهو يعمل في خدمة النظام سواء كان فاعلاً أم منفعلاً ، منتجاً ام متلقياً ، في وقت عمله كما في وقته الحر . ويشطر التقسيم التقني للعمل الكائن البشري ذاته إلى عمليات وإلى وظائف جزئية ينسق بينها منسقو السيرورة الرأسمالية . وتنظم هذه البنية التقنية للاستغلال شبكة واسعة من أدوات بشرية تنتج مجتمعاً غنياً ثرياً ، وتوفر

له اسباب البقاء والدوام . وهذا لأن الفرد يتلقى هو نفسه أيضاً جزءاً من تلك الثروة ، اللهم إلا إذا كان ينتمي إلى أقليات مخنوقة بلا رحمة ولا شفقة .

لا يتسبب الرأسمال من الآن فصاعداً بالنسبة إلى سكان المتربولات في الحرمان المادي بقدر ما يتسبب في تلبية متلاعب ومتحكم بها للحاجات المادية[1] ، ومع ذلك يجعل من الكائن الإنساني بكامله — بعقله وحواسه — موضوعاً للإدارة والتسيير ، ووصولاً لا بإنتاج وإعادة إنتاج الأهداف فحسب ، بل ايضاً قيم النظام ووعوده ، أي فردوسه الايديولوجي . وتحت القناع التكنولوجي ، وتحت قناع الديمقراطية السياسي ، يتجلى واقع العبودية العامة وانحلال الكرامة الإنسانية إلى حرية في الاختيار مشروطة مسبقاً . ولم تعد بنية السلطة « مصعَّدة » على منوال ثقافة تريد نفسها ليبرالية ، بل انها لم تعد مرائية لم تعد تنقذ لا « المظاهر » المهذبة ولا غلاف الكرامة) ، بل أمست فظة لا تزعم التطلع بصورة من الصور إلى الحقيقة والعدالة .

ويغدو الصواب والخطأ ، الخير والشر ، بصورة رسمية مقولات للاقتصاد السياسي ؛ فهي تحدد قيمة البشر والاشياء في السوق . وبينما يعم وينتشر المظهر البضاعي ، تفقد نوعية البضاعية « الباطنة » طابعها كعامل حاسم في قابليتها للاتجار بها في نفس الوقت الذي تتلاشى فيه من الوجود المزاحمة الحرة . فالرئيس يباع كما تباع السيارة ، وقد فات إلى حد يبعث على اليأس زمن الحكم على تصريحاته السياسية بمصطلحات الحقيقة والكذب ، فصحتها مرهونة بقدرتها على الحفاظ على أصوات الناخبين أو على الفوز بها . لا شك

---

(١) يتجلى هذا التغير في زيادة « الدخل المكتوم » ، أي الدخل غير الضروري لتلبية الحاجات الأساسية (قدرته مجلة « فورتشوت » في كانون الأول ١٩٦٧ بثلث الدخل الفردي الإجمالي). انظر مقال دافيد جلبرت : « الاستهلاك : أمبريالية منزلية » ، وهذا المقال هو ثمرة عمله في محاضرة في « وسكاونسن درافت ريزستانس أنستيتيوت » . وفي الوقت نفسة يتفاقم الفقر في الولايات المتحدة ، وهذا ما يعكس في عام ١٩٧٠ ميلا دائماً منذ عشر سنوات (طبقاً لمكتب الإحصاء ، أوردته نيويورك تايمز في ٨ أيار ١٩٧١) .

في أن الرئيس مطالب بأن يكون قادراً على أداء الوظيفة التي ابتيع لها ، أي ضمان الاستمرار الطبيعي للأعمال . كذلك يعين هامش الربح (ويحدد) نوعية نموذج من نماذج السيارات . فالسيارة مطالبة هي الأخرى بأداء الوظيفة التي ابتيعت لها ، لكن تنضاف إلى هذه النوعية « التقنية » نوعيات تقتضيها سياسة المبيعات (قوة فائقة ، وسائل راحة مضنية ، حلي براقة لكن « كاذبة » ، الخ) .

إن المظهر البضاعي ، بانتشاره وعمومه وبدمجه فروعاً من الثقافة المادية والثقافة « العليا » كانت ما تزال تحتفظ حتى الآن بشيء من الاستقلال ، يميط اللثام عن التناقض الجوهري والأساسي للرأسمالية في أعلى درجات تركزها : الرأسمال المعارض والمناوىء لكتلة السكان الكادحين في مجملهم .

ويؤدي تراتب الاوضاع وتسلسل المراكز ، داخل هذه الكتلة التابعة الفاقدة استقلالها ، ونسبة إلى سيرورة الانتاج ، يؤدي إلى استمرار المنازعات الطبقية والمنازعات بين مصالح مباشرة ، وعلى سبيل المثال ، بين التقنيين والمهندسين وغيرهم من المختصين الذين يتلقون أجوراً عالية من جهة ، وبين العامل الواقع ضحية مثل هذا التطبيق للتكنولوجيا من الجهة الثانية ؛ أو كذلك بين عامل العمل المنظم وبين البروليتاريا الدون ، بروليتاريا الاقليات القومية والعرقية . وللانتلجانسيا « غير المنتجة » حرية في الحركة اكبر من حرية الشغيل المنتج . لكن الحرمان من الإشراف على وسائل الإنتاج هو الذي يحدد مع ذلك الشرط **الموضوعي** المشترك بين جميع الأجراء والمستخدمين ، أي شرط المستغَلين الذين يعيدون انتاج الرأسمال . إن الواقع الذي يختفي وراء واجهة **مجتمع الاستهلاك** هو شمول الاستغلال لشطر متنامٍ من السكان ، مقروناً بمستوى عالٍ من الحياة . وهذا الواقع هو القوة الموحِّدة التي تتمثل من وراء ظهر الافراد ، الطبقات المتباينة والمتعارضة من السكان الرازحين تحت نيره .

(٣)

تظل هذه القوة المتمثّلة قوة إنحلال وفك اندماج . فلا التنظيم الشامل للمجتمع الرازح تحت نير رأسمالية الاحتكارات ولا الرخاء المتزايد الذي يوفره بقادرين على تجميد دينامية توسعه أو على عكس اتجاهها . فالرأسمالية لا تستطيع تلبية الحاجات التي تخلقها . ويعبر ارتفاع مستوى الحياة بالذات عن هذه الدينامية : فقد أوجد ضرورة إلى خلق متواصل لحاجات جديدة تمكن تلبيتها في السوق ، وهو يستحدث الآن حاجات **متعالية** تستوشب تلبيتها إلغاء نمط الإنتاج الرأسمالي . وصحيح بعد هذا أن تطور الرأسمالية يمر بطريق **إفقار** متزايد، وصحيح أن الإفقار سيكون عاملاً أساسياً في الثورة ، ولكن تحت أشكال تاريخية جديدة .

كان الإفقار في نظرية ماركس يعني قبل كل شيء الحرمان ، وعدم تلبية الحاجات الحيوية ، وقبل كل شيء الحاجات المادية . وحين لم يعد هذا التصور يمثل شرط الطبقات العاملة في البلدان الصناعية المتقدمة ، أعيد تأويله بحيث يغدو حرماناً نسبياً ، إفقاراً ثقافياً بالنسبة إلى الثروة الاجتماعية المتاحة . لكن إعادة التأويل هذه توحي باستمرارية خداعة في الانتقال نحو الاشتراكية ، اعني تحسن الحياة في إطار عالم الحاجات القائم . مع أن موضوع الرهان في الثورة الاشتراكية ليس محض تعميم للتلبية داخل عالم الحاجات القائم ، ولا نقل التلبية من مستوى معين إلى مستوى أعلى ، وإنما القطيعة مع هذا العالم ، **القفزة النوعية** . إن الثورة تستدعي تحويلاً جذرياً للحاجات عينها وللمطامح والصبوات ، سواء الثقافية منها أو المادية ؛ وتحويلاً للوعي والحساسية ولسيرورة العمل ووقت الفراغ على حد سواء[1] . ويتجلى هذا التحويل

---

(١) راجع ورقة عمل جماعة المانيفستو في تشرين الاول ١٩٧٠ ، المعنونة باسم « في سبيل الشيوعية » وبوجه خاص الاطروحات ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٩ : الاطروحة ٧٣ : « ... إن تناقضات الرأسمالية النوعية ونضج الشيوعية كثورة جذرية لا تنبع من تطور شامل للقوى المنتجة بقدر ما تنبع من قفزتها النوعية الذاتية ..» . الاطروحة ٧٤ : « ليست الثورة البروليتارية اكتمال=

في النضال ضد تجزئة العمل ، وضد آمر الانتاجية وإنجاز المهام البليدة في سبيل بضاعة بليدة ، وضد ضراوة كسب الفرد البورجوازي ، وضد العبودية تحت اسم التكنولوجيا ، وضد الحرمان تحت اسم الرفاه ، وضد التلوث من حيث أنـــه نمط حيـــاة . وتغدو الحاجات الأخلاقـــية والجمالية حاجات اساسية ، حيوية ، تستدعي علاقات جديدة بين الجنسين ، بين الأجيال ، بين الرجال والنساء والطبيعة . أما الحرية فتمسي مفهومة على أنها مرسلة جذورها في تفتح مثل هذه الحاجات التي هي في آن واحدٍ ، وعلى نحو لا يقبل انفصاماً ، حاجات حسية وخلقية وعقلية .

إذا كان اليسار الجديد يشدد اللهجة على النضال في سبيل إحياء الطبيعة ، في سبيل حدائق وشواطىء عامة ، في سبيل فسحات من الجمال والهدوء ، وإذا كان يطالب بأخلاق جنسية جديدة وينادي بتحرير المرأة ، فهذا لأنه يكافح فعلاً وحقاً الشروط المادية التي يفرضها النظام الرأسمالي وإعادة انتاج هذا النظام . ذلك أن قمع الحاجات الجمالية والاخلاقية سبيل من سبل السيطرة[1] .

كان ماركس يرى أن تطور وعموم الحاجات الحيوية « الفائضة » المتجاوزة للحاجات الاولية الاساسية يمثلان مستوى التقدم الذي يفترض فيه ان يكون البشير ببداية نهاية الرأسمالية :

« ان الدور التاريخي العظيم للرأسمال هو أن **ينتج ذلك**

= وتحرر الميول الناضجة في رحم المجتمع الرأسمالي ، بل هي تسريع تناقض جدلي ، قطيعة نوعية » . الأطروحة ٧٥ : « ليست الشيوعية .. اقتصاداً سياسياً جديداً بل نهاية الاقتصاد السياسي ؛ ليست الدولة العادلة بل نهاية الدولة ؛ ليست تسلسلا تراتيباً للمواهب الطبيعية بل إلغاء القيمة التسلسلية التراتيبية للمواهب والتفتح التام للجميع ؛ ليست تحفيض العمل بل نهاية العمل كنشاط أجنبي عن الإنسان وكمجرد أداة » . الأطروحة ٧٩ : « ... مضاعفة التنظيم الاجتماعي للنشاطات الاجنبية بسيرورة العمل القليدي .. » .

(١) انظر الفصلين الثاني والثالث .

العمل الفائض ، وهو زمن فائض من وجهة نظر القيمة الاستعمالية الخالصة ، من وجهة نظر أود الحياة .

لقد ادى الرأسمال وظيفته التاريخية حين تطورت الحاجات التطور الكافي حتى يغدو العمل الفائض ، الإضافي بالنسبة إلى ما هو ضروري ، حاجة عامة ، ونابعاً من حاجات الفرد نفسه ، من جهة أولى ؛ ومن الجهة الثانية حين يغدو التفاني في العمل ، الذي يفرضه انضباط الرأسمال الصارم على الاجيال المتتالية ، الصالح العام للإنسانية الجديدة »[1] .

إن الشرط الذي يشترطه هذا النص هو أن تنبع الحاجة العامة إلى عمل مغاير لذاك الذي تقتضيه الضرورات الصارمة ومنضاف إليه ، أن تنبع من الحاجات الفردية — وإنما في مثل هذه الشروط يمكن للأفراد أن يحددوا بأنفسهم موضوع عملهم وأولوياته واتجاهه . وفي أعلى درجات الرأسمالية واكثرها تقدماً؛ حيث يمكن تخفيض العمل المبذول تلبية للضرورات الأساسية الأولية إلى الحد الأدنى تقنياً ، ستكون الحاجة العامة إلى العمل « الفائض » هي علامة القطيعة ، القفزة النوعية . والموقع التاريخي للثورة هو بالتحديد درجة التطور التي تخلق تلبية الحاجات الحيوية بدءاً منها حاجات اخرى تتخطى وتتجاوز مجتمعات رأسمالية الدولة واشتراكية الدولة .

إن لفي نمو هذه الحاجات حوافز ومحركات جديدة كل الجدة للثورة . وتشديد اللهجة عليها لا يعني بحال من الأحوال التهاون ، بله التخلي عن الآمر الأول لكل ثورة ، اعني به تلبية الحاجات المادية للجميع . لكنه يعبر صدقاً عن الوعي الذي يدرك من البداية ان تلبية الحاجات المادية الحيوية يجب ، من وجهة النظر الثورية ، أن تتم تحت شعار **تقرير المصير الذاتي** — تقرير المصير الذاتي للرجال والنساء الذين يطالبون بحريتهم ، بإنسانيتهم ،

---

(١) ماركس « اسس نقد الاقتصاد السياسي » .

في تلبية تلك الحاجات بالذات. ان الكائن البشري كان وما يزال حيواناً ، لكنه حيوان يوفر الرعاية والتفتح لحيوانيته بأن يجعل منها جزءاً من فرديته ، من حريته ، من حيث أنه ذات .

إن القوى النابذة المبعدة عن المركز التي تظهر مع بزوغ حاجات متعالية تفاجىء المتلاعبين والمتحكمين الرأسماليين من حيث لا يدرون ، ونمط الانتاج هو نفسه مصدر ذلك . فإنتاجية العمل المتزايدة ، المقترنة بتدني حصة قوة العمل البشري المستخدمة في انتاج السلع ، تفرض ضرورة توسع السوق الداخلي في مقابل الامبريالية في الخارج . ولا سبيل امام نمط الانتاج القائم للاستمرار في البقاء سوى أن يزيد باستمرار من كتلة السلع والخدمات الكمالية ــ علاوة على تلبية الحاجات المادية الحيوية (وهي تلبية تتطلب زمن عمل متناقصاً باطراد) ؛ وهذا يعني أنه لا بد من زيادة السكان المستهلكين (كتلة القوة الشرائية) القادرين على الاتجاه نحو تلك السلع [1] . وهكذا يتم القضاء على بؤس الحاجات الحيوية غير الملباة بالنسبة إلى غالبية السكان ، ويجري « احتواء » الفقر المطلق ، فيمسي مقصوراً على أقلية (متنامية أصلاً) من السكان . وبالتوازي مع عالم العمل المستلب يخلق التقدم التقني وعرض « الكماليات » بكميات كبيرة ويعيدان ، من خلال الإعلان اليومي والعلامات عن الوفرة والرخاء الماديين ، خلق حدود عالم ميسور يحقق فيه المرء ارباحاً ويتمتع برغد العيش ، صور عالم ما عاد حكراً وامتيازاً لأقلية ، فيبدو وكأنه في متناول الجماهير . ان النجاحات التقنية للرأسمالية تنفذ إلى عالم

---

(١) يذكر ميكائيل تانزر في « المجتمع المريض » ، نيويورك ١٩٧١ ، أن المدير العام لواحدة من أضخم الشركات في البلاد ، وهي « المخازن المتحدة » صرح بقوله : « إن النفع في ذاته لا يمكن ان يكون المعيار الأساسي لصناعة ملابس مزدهرة .. لا بد من أن تبطل الموضة بسرعة اكبر ... وإنه لجزء من مهنتنا أن نجعل النساء متذمرات مما لديهن ... علينا ان نجعلهن متذمرات إلى درجة لا يعود معها الزوج قادراً على أن يجد الرضى أو السلام في مدخراته الزائدة عن الحد » (ص ١٥٥) . والسياسة المطبقة هنا على صناعة الملابس الجاهزة تتحكم ، كما هي تقريباً ، بقطاعات واسعة من الاقتصاد بمجمله ، بما فيه الصناعات الحربية .

من الحرمان ونقص السعادة والقمع . وقد رسمت الرأسمالية بعداً جديداً هو في آن واحد مجالها الحيوي ونفيها . وانتاج السلع والخدمات على نطاق اكبر وأوسع يضيق ويقلص قاعدة التطور اللاحق للرأسمالية .

« ان تطور القطاع الثالث ، الذي هو قطاع الخدمات ، يتم من الآن فصاعداً بوتيرة متسارعة . وهو يمتص طلبات متنامية ، ويستدعي توظيفات غير منتجة لا يني حجمها في تزايد مطرد . وانطلاقة هذا القطاع تخل بتوازن علاقات القوة في اقتصاد كان متجهاً بكامله حتى الآن نحو مضاعفة السلع وإيرادية الإنتاجات .

ليست هذه بمفارقة ، والمنتج يبدأ بإخلاء الساح للمستهلك إذا تلاشت إرادة الإنتاج أمام نفاد صبر استهلاك يتغلب فيه الاستمتاع بالأشياء المعاشة في الأهمية على امتلاك الأشياء المنتجـــة ...

وليس تمرد الأجيال الشابة على مجتمع الاستهلاك شيئاً آخر سوى مظهر فكري لإرادة تجاوز العصر الصناعي ، وبحث عن وجه جديد للمجتمع يقع ، وان صورة مبهمة ، خلف مجتمع المنتجين »[1] .

بديهي أن « الاستمتاع بالاشياء المعاشة » يستوجب إنتاجها مسبقاً ، ولكن ليس حصراً ! فالكثير منها متوفر من الآن ، وكل ما هنالك أنه ينبغي إعادة توزيعها . أما ما هو ضروري لا غنى عنه للتلبية العامة للحاجات المادية ، فمن الممكن إنتاجه بحد أدنى من العمل المستلب . والحال أن إنتاج فضل القيمة المطلوبة لا يتطلب تشديد العمل فحسب ، بل أيضاً توظيفات اكبر في خدمات التبذير المدر للأرباح (إعلان ، تسلية ، أسفار منظمة) ، في

(١) جاك روزنر في صحيفة « لوموند » ، ٢٣ حزيران ١٩٧٠ .

الوقت الذي تهمل فيه ، هذا إذا لم تُنقص ، الخدمات العامة غير المدرة للأرباح (مواصلات ، تربية، إسعاف إجتماعي) . وبالرغم من كل شيء تجد رأسمالية الاحتكارات نفسها مهددة بإشباع سوق التوظيفات والمنتجات . ولا بد من أن يزاد باستمرار الاستهلاك على أساس تزاحمي ، الأمر الذي يعني أن مستوى الحياة المرتفع يطيل في أمد الوجود الذي يحياه الإنسان في أشكال مجردة اكثر فأكثر من إنسانيتها ولاغية المعنى ، بينما يبقى الفقراء فقراء ويرتفع عدد ضحايا الازدهار الاميركي .

قد يقال إن هذا التناقض بين الحالة الراهنة للأشياء وبين حالة الاشياء الممكنة والمفروض فيها أن تكون ممكنة يشق دربه ، في اشكال عينية للغاية ، في أذهان السكان التابعين المحرومين من استقلالهم بأنفسهم . وإن لوعي اللاعقلانية العامة آثاراً سلبية على مردود النظام . وصنمية عالم البضائع آخذة بالاهتراء : فالناس يدركون حقيقة بنية السلطة خلف واجهة التقنوقراطية المزعومة وكلامها المعسول . وباستثناء بعض الاقليات العرقية الصغيرة ما يزال هذا الوعي لاسياسياً ، عفوياً ، «ايديولوجياً» ، ملجوماً مراراً وتكراراً — لكنه يجد أيضاً تعبيره في قاعدة المجتمع بالذات . ومن خلال تضاعف عدد الاضرابات الوحشية ، والاستراتيجية النضالية القائمة على مبدأ احتلال المصانع ، ومن خلال موقف العمال الشبان ومطالباتهم ، يزيح هذا الاحتجاج النقاب عن تمرد على مجمل شروط العمل المفروضة ، وعلى **كل** النشاط المفروض على الإنسان فرضاً :

« إن الجيل الجديد ، الذي سبق أن هز أركان الجامعات ، يظهر علامات فوران وغليان في ورشات اميركا الصناعية . فالكثير من الشغيلة الفتيان يطالبون بتغيير مباشر لشروط عملهم ، ويرفضون انضباط العمل في المصنع الذي كان المتقدمون عليهم في العمر قد قبلوا به روتينياً . فهم لا يكتفون بالرد على المناظرين ورؤساء الورشات فحسب ، بل يرفعون

أيضاً أصواتهم في الاجتماعات النقابية ، ويشتكون من بطء قادتهم النقابيين في الانتقال إلى العمل . وهؤلاء الشبان اكثر ثقافة وتعليماً ويريدون أن يعاملهم المسؤولون عن الورشات على قدم المساواة . وخوفهم من فقدانهم وظيفتهم أقل من خوف أبناء الجيل المتقدم عليهم ، وفي كثير من الأحيان يعصون أوامر رئيس ورشتهم »[1] .

وهم يدركون أن الحياة يمكن أن تعاش على وجه آخر . وكثيرة هي اعمال التخريب الفردي والجماعي . وقد أدرك الميل إلى التغيب المتكرر عن العمل نسباً تفوق التصور[2] . ولا يحاول المستخدمون الأجراء (مستخدمو البيع ، مستخدمو المكتب ، الخ) أن يخفوا البتة لامبالاتهم — بل عداءهم — للمهام المطلوب تنفيذها : « الأمر لا يعنينا » . أما « المردودية » فقد دالت دولتها : فالعجلة ستظل تدور على كل حال . في الماضي ، في عصر المزاحمة الحرة ، كانت الرأسمالية تقوم إلى حد كبير على الاندماج الشخصي للفرد بمهمته ، بوظيفته ؛ وكان هذا الاندماج يفرض بالقوة على الشغيل، لكنه كان يؤلف جزءاً لا يتجزأ من حسن سير الاعمال بالنسبة إلى البورجوازيين : فقد كان الإفلاس يتربص باللامبالين واللافعالين . أما اليوم فإن قطاعاً بكامله من الاقتصاد (الزراعة) وشطراً هاماً من القطاع الصناعي منوطان بالإعانات

---

(١) مقتطف من ريبورتاج لاجيس سالبوكاس في « نيويورك تايمز » في ١ حزيران ١٩٧٠ . وللاطلاع على معلومات اكثر جدة عن اتساع مدى المطالب العمالية ، يمكن الرجوع إلى « التايم » بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٧٠ ، ص ٦٨ وما يليها ، وإلى « النيوزويك » بتاريخ ١٧ أيار ١٩٧١ ، ص ٨٠ وما يليها .

(٢) « حتى في فترة الكساد تظل نسبة التغيب مرتفعة إلى حد مؤسف ... فطبقاً لفورد ، تضاعفت أكثر من مرتين خلال الأعوام العشرة الأخيرة لتصل إلى معدل وسطي يبلغ ٣ر٥٪ في عام ١٩٧٠ ... وقد قدمت إحدى شركات صنع السيارات علاوات للمواظبة (بلا نتيجة) . وناهيك عن التغيب ، يلجأ الكثيرون من العمال الشبان في ورشات صناعة السيارات إلى الإضراب بلا لف او دوران » (نيوزويك ، ١٧ ايار ١٩٧١) .

الحكومية ، وعليه لم يعد الافلاس يشكل خطراً أو تهديداً .

لقد أحست الغالبية الكبرى من السكان على الدوام بأن جسدها وروحها يستخدمان كأدوات لنشاطات مضنية ، « ضرورية اجتماعياً » . وبالفعل ، كانت الثقافة بكاملها ، وبوجه خاص الدين والأخلاق ، تلح على تلك الضرورة باعتبارها جزءاً من المصير البشري وشرطاً مسبقاً للمكافأة والغبطة . وكان نمط الانتاج الرأسمالي ينظم عملية قمع على قدر باهر من العقلانية : عملية قمع في خدمة النضال ضد الندرة وفي سبيل السيطرة على الطبيعة ، سرعان ما غدت قوة محركة للتقدم التقني ، قوة منتجة . اما اليوم فإن العكس هو الصحيح : فهذا القمع في سبيله الآن إلى فقدان عقلانيته . فـ « الزهد الداخلي » لا يتآلف ومجتمع الاستهلاك ، ولذا راحت تحل محله « نزعة كينزية » مشتطة .

أقول : مشتطة ، لأن السياسة التي كان يفترض فيها أن تضمن استمرار النمو الرأسمالي لم تفعل ذلك إلا على حساب تفاقم في تناقضاتها . ففي الولايات المتحدة ، التي ما تزال حامية « الرأسمال العالمي » ، استوجبت هذه الحماية إنشاء جهاز عسكري سرعان ما صارت له حصة الأسد في سلطان الرأسمال [1]. وقد أدرك التوسع العام آخر حدوده : ففي اميركا اللاتينية وآسيا واوروبا تواجه الهيمنة الأميركية ، تحديات خطيرة [2] .

وينعكس الميل كذلك في مجتمع الاستهلاك ، فيتجه من الامبريالية الجديدة إلى الداخل : هكذا تتعرض الأجور الفعلية للتدني ، ويستمر التضخم والبطالة ،

---

(١) « في حزيران ١٩٦٩ بلغت الأملاك التي تملكها وزارة الدفاع مباشرة ٢٠٢ مليار دولار . وكانت تضم اراضي ، ومباني ، وجهازاً انتاجياً ، ومكاتب ، ووسائل مواصلات ، ومطارات ، وقيمة العتاد العسكري .. وكانت وزارة الدفاع مالكة ، في عام ١٩٦٩ ، لـ ٢٩ مليون اكرة (حوالي ١١,٥ مليون هكتار) . ثم ان حجم العقود المبرمة اثناء سنة ضريبية بعينها يزيح النقاب عن ضخامة الموارد التي تحت تصرفها : ٤٤٦ مليار دولار مرتبط بها في عام ١٩٦٧ » ، سيمور ملمان ، « رأسمالية البانتاغون » ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٧٢ .

(٢) انظر ارنست ماندیل « الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي » ؛ كلود جوليان « الامبراطورية الاميركية » ؛ هاري ماغدوف ، المصدر الآنف الذكر .

وتميط أزمة النقد العالمية اللثام عن وهن الركيزة الاقتصادية للامبراطورية . إن قاعدة جماهيرية كامنة مناصرة للتغيير الاجتماعي تجد تعبيرها ، وان على نحو مبهم ما قبل سياسي ، في الموقف من العمل وفي المناقضة والاحتجاج بصورة تهدد بتقويض شروط مسار الرأسمالية وقيمها . أفلا يسع المرء أن يتدبر حياته بدون كل ذلك العمل البليد ، المضني ، الذي لا آخر له ؟ ألا يمكنه أن يحيا مبذراً أقل ، وبكمية أقل من الترهات والبلاستيك ، ولكن بمزيد من الزمن والحرية ؟ إن هذا السؤال القديم ، الذي ردت عليه على الدوام وقائع الحياة المفروضة فرضاً من قبل سادة هذا العالم برد سلبي ، لم يعد اليوم مجرداً ، انفعالياً ، لا واقعياً . بل نراه يتلبس أشكالاً عينية واقعية وهدامة إلى حد خطر .

لكن هل مجتمع الاستهلاك هو حقاً ، عند التمحيص ، مرحلة الرأسمالية الأخيرة ؟ إن مصطلح « مجتمع الاستهلاك » هو بادىء ذي بدء خدعة لفظية من الدرجة الأولى ، لأنه يندر أن يكون في المستطاع تنظيم مجتمع من المجتمعات كما هو حال مجتمعنا ، في صالح أولئك الذين لهم اليد العليا على **الإنتاج** . إن مجتمع الاستهلاك هو النموذج المحتذى لاعادة انتاج رأسمالية الدولة الاحتكارية ذاتياً في اعلى مراحلها تقدماً . وإنما في هذه المرحلة بالتحديد يعيد القمع تنظيم نفسه . فالحقبة « الديموقراطية » — البورجوازية » للرأسمالية تنتهي لتخلي الساح لحقبة جديدة مناهضة للثورة .

لقد عززت إدارة نيكسون التنظيم المضاد للثورة للمجتمع في مختلف الاتجاهات . وقد حولت قوى الأمن والنظام والدفاع عن القانون إلى قوة فوق القوانين . وفي العديد من المدن بات العتاد العادي للشرطة يشابه عتاد رجال الصاعقة النازيين ؛ كما أن وحشية سلوكهم أمست مألوفة لدينا . وثمة قمع لا يرحم ينهال بكل ثقله على بؤرتي المعارضة الجذرية : المراكز الجامعية والمناضلين غير البيض ؛ فقد خنقا كل نشاط في الأحرام الجامعية ، وطورد حزب « الفهود السود » مطاردة لا تلين لها قناة قبل أن ينحل تحت ضغط صراعاته الداخلية . ويطوق البلاد جيش هائل من المخبرين المدنيين ،

ضرب جذوره وتغلغل في جميع فروع المجتمع. وقد نكس الكونغرس رايته (أو بالاحرى خص نفسه بنفسه) أمام السلطة التنفيذية، المرتبطة بدورها بجهازها العسكري الضخم.

لسنا هنا **بحال من الأحوال** أمام نظام فاشي. فما تزال المحاكم تحمي حرية الصحافة، وما تزال صحف «الأقبية»[1] تباع بحرية، كما ما تزال وسائل الإعلام تسمح بنقد صارم ومتواصل للحكومة ولسياستها. صحيح أن حرية التعبير بالنسبة إلى السود لا يكاد يكون لها وجود، وصحيح أن حرية البيض تحد وتقيد بنجع وفعالية، لكن حقوق الإنسان ما تزال ماثلة: فالقول (وهذا صحيح) بأنه ما يزال في مستطاع النظام أن «يبيح لنفسه» ترف هذا النوع من المناقضة، والاحتجاج، ليس حجة لنفي وجود تلك «المريات». أما المسألة الحاسمة والأهم فهي معرفة ما إذا كانت المرحلة الراهنة من الثورة المضادة الوقائية (مرحلتها الديموقراطية ــ الدستورية) لا تمهد السبيل امام مرحلة فاشية تالية.

ليس من الضروري في أرجح الظن الإلحاح بإفاضة على اختلاف الوضع في الولايات المتحدة عما كان عليه في المانيا فايمار: فلا وجود لحزب شيوعي قوي، ولا لمنظمات جماهيرية شبه عسكرية، ولا لأزمة اقتصادية معممة، ولا لافتقار إلى «مجال حيوي»، ولا لزعماء سحرة، كما أن الدستور والحكومة المشكلة باسمه يؤديان وظيفتهما على الوجه المرام، الخ. إن التاريخ لا يكرر نفسه البتة بدقة، وإن درجة عليا من التطور الرأسمالي في الولايات المتحدة تستدعي درجة عليا من الفاشية. وتملك هذه البلاد، برسم تنظيم توتاليتاري، موارد وطاقات اقتصادية وتقنية تفوق بما لا يضارع الموارد والطاقات التي أتيحت قط لألمانيا هتلر. وقد تضطر الإدارة الاميركية تحت ضغط ثلاثي: وقف مد توسعها الامبريالي، والمصاعب الاقتصادية الداخلية،

---

(١) Underground.

والاستياء الذي يجتاح السكان، قد تضطر إلى الكبس على زر نظام استبدادي أشد وحشية بما لا يقاس واكثر شمولاً.

لقد نوهت بالطابع المبهم، اللاسياسي، اللامنظم للتذمر والاستياء. ومن الممكن بسهولة أن تتحول القاعدة الجماهيرية الكامنة للتغير الاجتماعي إلى قاعدة جماهيرية للفاشية. كتب وليم. ل. شيرر في «لوس انجلوس تايمز» في ١٣ آذار ١٩٧٠: «ما ادرانا اننا لن نكون أول شعب يغدو فاشياً عن طريق الانتخابات العامة؟». وقد أمكن التعبير بأدق صورة وأوضحها وأدهشها عن العلاقة بين الديمقراطية الليبرالية والفاشية في الصيغة التالية: «إن الديموقراطية الليبرالية هي وجه سلطة المالكين حين لا يكونون خائفين، والفاشية حين يكونون خائفين [١].. ويبدو أن تشديد قبضة القمع والسياسة الاقتصادية الجديدة لسلطات رأسمالية الدولة يشيران إلى أن الطبقة الحاكمة، في الولايات المتحدة على كل حال، هي في سبيلها إلى أن يتملكها الخوف. وتشير بعض أشكال التجمع ذي الطابع السياسي والسيكولوجية في أوساط السكان إلى وجود أعراض أولية لمرض فاشي. وإليكم بعض أمثلة:

ـ شكلت اصوات العمال نسبة مرموقة من إجمالي الاصوات التي نالها جورج والاس [٢] في الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٦٨، وكذلك كانت الحال في الانتخابات التي جرت مؤخراً في فيلادلفيا والتي نصبت عليها عمدة من أقصى اليمين، عرّف نفسه بنفسه بأنه أقسى وأعند شرطي في الأمة قاطبة.

ـ انفجر العنف المتراكم بين السكان بصورة مرعبة من خلال اتحادهم شبه الديني بفرد ثبت اقترافه للعديد من جرائم الحرب. وقد حيوا في شخصه مسيحاً أعيد صلبه. وكان الصخب العام يطالب بتقليد مجرم الحرب هذا

---

(١) ليو جولياني في «لوفون»، ٢٣ تموز ١٩٧١.

(٢) جورج والاس: مرشح عنصري مأفون لانتخابات الرئاسة الاميركية.

الأوسمة بدلاً من معاقبته ، وقد بلغ عدد الرسائل والبرقيات والمكالمات الهاتفية التي أرسلت احتجاجاً على الحكم مئة ضعف تلك التي ارسلت تأييداً له[(1)] .

– لنستشهد أيضاً برد فعل معين أعقب مصرع اربعة طلاب في « كنت استيت كولج » في ايار ١٩٧٠ ، وفيه نتبين ملامح قصة رعب حقيقية :

« لا يمكن لأي حالة من حالات تبرؤ الأهل أن تعادل حالة أسرة تقطن مدينة صغيرة قريبة من حدود كانتاكي ، ولها في الجامعة ثلاثة أبناء وسيمون ، مستقيمون ، معتدلون . وقد وجد هؤلاء الفتية ، انفسهم ، من دون أن يكونوا قد شاركوا قط في أعمال الاحتجاج ، وجدوا أنفسهم عرضاً ومصادفة في بؤرة الشغب بالذات : فقد وجد الابن الأوسط نفسه واقفاً إلى جانب أحد الطلبة الصرعى (على مسافة بعيدة من مكان إطلاق النار) ، كذلك اعتقل الابن الاصغر بتهمة الاعتداء على الملكية الخاصة ، ونشرت صورته في صحيفة المدينة التي رأى فيها النور ، فوقعت أسرته في حرج كبير . وقد تحادث واحد من محققينا مع هذه الأسرة ، واتخذت المحادثة وجهاً يبعث على الذهول إلى درجة حملتنا على إيلاء المزيد من العناية والاهتمام لنقل تفاصيلها بدقة وأمانة :

الأم : إن جميع اولئك الذين يتسكعون في شوارع « كنت » بشعور طويلة أو بملابس قذرة أو حفاة يستأهلون الإعدام رمياً بالرصاص .

المحقق : هل تسمحين لي بأن أروي هذه العبارة ؟

---

(١) ريشارد هامر : « المحاكمة العرفية للملازم هالي » ، نيويورك ١٩٧١ . انظر ايضاً مقالي في « نيويورك تايمز » في ١٣ أيار ١٩٧١ .

الأم : بالتأكيد . كانت الشرطة ستفعل حسناً لو صرعتهم جميعهم هذا الصباح .

المحقق : لكن أبناءك الثلاثة كانوا فيها ؟

الأم : إذا كانوا قد رفضوا الانصياع لما طلبه البوليس منهم ، فما كان على الشرطة إلا أن تقتلهم .

أستاذ في علم النفس (كان يحضر المقابلة) : هل إرسال الشعر سبب لقتل إنسان ؟

الأم : تماماً . ينبغي تنظيف هذه البلاد . ويجب أن تكون البداية بذوي الشعور الطويلة .

الأستاذ : أتقبلين بقتل أحد ابنائك لمجرد أنه يسير حافياً ؟

الأم : أجل.

الأستاذ : من أين استقيت مثل هذه الأفكار ؟

الأم : انني مدرسة في معهد .

الأستاذ : هل تقصدين أن هذا هو التعليم الذي تقدمينه لتلامذتك ؟

الأم : نعم . إنني اقول لهم الحقيقة . اقول لهم إن من الواجب إعدام جميع المتصعلكين ، والقذرين ، واولئك الذين يتسكعون في الشوارع من دون أن يفعلوا شيئاً »[1] .

ـ الهجمات المنسقة الموجهة ضد كل تعليم غير التعليم « المهني » أو العلمي « المتين » لم تعد مقصورة على القمع المعتاد بواسطة الميزانية . هكذا يطالب عميد مؤسسات الدولة في كاليفورنيا بتحظير دراسة الآداب القديمة والعلوم

---

(١) جيمس أ . ميشنر : « ولاية كنت . ماذا حدث ولماذا » ، كونكتيكت ، ١٩٧١ ، ص ٤٠٩ .

الاجتماعية حيث وجد التعليم غير الامتثالي ملجأ له :

« إن لفي الجامعات أعداداً وأعداداً من الطلبة ممن لا يعرفون على وجه الدقة ما يفعلونه فيها .. وقد كان تحولهم إلى الآداب القديمة والعلوم الاجتماعية شبه غريزي ، بلا منظورات محددة للاستخدام »[1] .

لقد مر عهد كانت فيه الفلسفة البورجوازية الكبرى تنادي عالياً .:

« ... لا ينبغي تنشئة الاطفال بحسب الحالة الراهنة للجنس البشري ، وإنما بحسب حالة أفضل ممكنة في المستقبل ، أي بحسب فكرة الانسانية وكمال غايتها . إن هذا المبدأ لعلى جانب عظيم من الأهمية »[2] . والحال أن « مجلس التعليم العالي » يطالب اليوم بدراسة « الحاجات المفضلة » للمجتمع القائم بحيث تعرف الجامعات « المجازين الواجب انتاجهم »[3] .

ان التحكم الرأسمالي الاحتكاري بالسكان ، واقتصاد التضخم ، وسياسة « الدفاع » لا فحوى لها غير القتل ، وقتل المزيد دوماً ، ولهذا خلق التدريب على التقتيل وشيوع جرائم الحرب والمعاملة الفظة التي يعامل بها نزلاء السجون الموفورو العدد ، طاقة هائلة من العنف في الحياة اليومية . فقد أبيحت أحياء بكاملها في المدن الكبيرة للإجرام ، وتبقى الجريمة التسلية المفضلة التي تقدمها وسائل الإعلام . وحين يكون هذا العنف ما يزال كامناً ، لفظياً ، أو حين يعبر عن نفسه في أفعال غير فادحة الخطورة (كإساءة معاملة المتظاهرين على سبيل المثال) ، فإنه يكون موجهاً جوهراً وأساساً ضد أقليات عاجزة لكنها موهلة لذلك تماماً ، تبدو وكأنها اجسام أجنبية تزعج النظام القائم ، لأنها تتكلم لغة أخرى ، وتسلك مسلكاً مغايراً ، وتفعل (أو يُشك بأنها تفعل) اشياء لا يبيح اولئك الذين يقبلون بالنظام القائم ويرتضون به لأنفسهم أن يفعلوها .

---

(١) « لوس انجلوس تايمز » ، ١٧ تشرين الثاني ١٩٧١ .

(٢) كانط : « مقالة في علم التربية » .

(٣) « لوس انجلوس تايمز » ، ١٧ تشرين الثاني ١٩٧١ .

وتتمثل هذه الأهداف (الدريئات) في السود وغيرهم من الملونين ، وفي الهيبيين ، وفي المثقفين الجذريين . ويفضح هذا كله – العدوان والهدف المقصود – طاقات شبه فاشية في غاية الوضوح [1] .

ولا يمكن ان يأتي الرد على ذلك إلا من قبل يسار جذري منظم تنظيماً فعالاً ، في مستطاعه ان يقوم بمهمة كبيرة ، مهمة **التربية السياسية** التي ستبدد الوعي الزائف أو الوعي المشوه للناس بطريقة تجعلهم يحسون احساساً حقيقياً بوضعهم وبالحاجة الحيوية إلى وضع حد له ، كما تجعلهم يدركون طرق تحررهم ويمسكون بوسائله .

صحيح أن الفاشية ليست هي التي ستنقذ الرأسمالية ، فهي نفسها لا تعدو أن تكون تنظيماً إرهابياً للتناقضات الرأسمالية . لكن الفاشية إذا ما قامت قائمتها كانت قادرة كل القدرة على تدمير كل طاقة ثورية لأمد غير محدد من الزمن .

إن التحليل الماركسي لا يستطيع ولا يجوز له أن يعزي نفسه ويعللها باللجوء إلى « المدى الطويل » . فعلى « المدى الطويل » سينهار النظام بكل تأكيد ، هذا صحيح ، لكن النظرية الماركسية تعجز عن التنبوء بشكل المجتمع الذي سيخلفه (هذا إذا ما خلفه مجتمع ما). إن حدود الاختيار (الفاشية أو الاشتراكية) في إطار الشروط الموضوعية منوطة بالذكاء وبالإرادة ، بوعي الكائنات البشرية وبحساسيتها . منوطة بما تبقى لها من **حرية** . ويجد المرء في قلب النظرية الماركسية فكرة مرحلة مديدة من البربرية ، كنقيض لطريق الاشتراكية ، فكرة بربرية قائمة على النجاحات التقنية والعلمية للحضارة . والحال أن الثورة المضادة هي التي تملك في الوقت الحاضر المبادرة والسلطة ،

---

(١) انظر ليو لوونتال ونوربرت غوترمان : « انبياء الكذب : دراسة في تقنيات المحرضين الاميركيين » بالو آلتو ١٩٧٠ ؛ وكذلك ت . و . آدورنو وإيلس فرنكل – برانشفيغ وآخرين : « الشخصية الاستبدادية » ١٩٥٠ .

وفي إمكانها كل الإمكان أن تفضي ، وهي في أوجها ، إلى شبيه تلك الحضارة البربرية .

(٤)

في الولايات المتحدة (لكن هل في الولايات المتحدة وحدها ؟) يجد اليسار الجديد قاعدة عملياته في ارض الثورة المضادة تحديداً . ويبدو هذا اليسار في غاية الضعف والوهن ، ولا سيما في أوساط الطبقة العاملة . ويصطدم الجذريون بعداء شعبي عنيف ، وهم فريسة سهلة للملاحقة والاضطهاد . لكن ضحالة الطاقة الثورية هذه في عصر أوج التطور الرأسمالي خداعة : ولن تضللنا الظواهر بعد الآن إذا فهمنا أنه يظهر في هذه المرحلة نمط جديد من الانحلال والثورة ، مناظر لمرحلة الرأسمالية الجديدة ونتاج لها . وإذا ما فهمنا نتائج رأسمالية الدولة الاحتكارية وعواقبها تلك ، فلن نجد حاجة إلى إعادة النظر في النظرية الماركسية وإنما إلى إحيائها ، وهذا يقتضي فيما يقتضي أن نتحرر من صنيمتنا الذاتية ، وأن ننعتق من طقسيتها ومن البلاغة المتحجرة التي تحول دون تطورها الجدلي . إن الوعي الزائف مستمر لدى اليسار الجديد كما لدى اليسار التقليدي .

لقد رسمت في القسم السابق لمحة عامة عن الميول التي تساهم في توسيع القاعدة الجماهيرية الكامنة وتعديلها ، وفي تبديل « المحركات والدوافع » الثورية وإحيائها . تنبع هذه الميول من نمط الانتاج ذاته الذي يوسع (ويعدل) قاعدة الاستغلال بخلقه حاجات يعجز نمط الانتاج الساري المفعول عن تلبيتها . الحاجة إلى حياة أفضل « آمال متعاظمة » ، لكن بالتحديد الحاجة إلى حياة لا تقتصر بعد الآن على عمل يجرد الانسان من إنسانيته في كل لحظة وحين ، إلى حياة تقرر مصيرها بنفسها . ومن هذا المنظور ، وعلى أساس نمط انتاج اشتراكي ، ينبغي أن يعاد بناء المحيط التقني والطبيعي بكامله .

إن هذا التحول التاريخي يحرم الرأسمالية من الآن فصاعداً مما كان لها

بمثابة مبرر ومسوغ لتوجه حياة الرجال والنساء ، ولتسوي الطبيعة والمجتمع على صورتها . وخرق القاعدة الاضطهادية المتمثلة في الانتاج المادي يعني تحويل الاهتمام من القطاعات المادية إلى قطاعات الانتاج الفكرية ، والانتقال من العمل المستلب إلى العمل الخلاق . أو بتعبير أدق ، إن الانتاج المادي نفسه الخاضع اكثر فأكثر للتنظيم التكنولوجي ، يصبح قابلاً للأنسنة . وفي الامكان إنقاص وطأة العمل الميت على العمل الحي عن طريق التحرير التدريجي للعمل الحي من إسار عملية الصناعة الممكننة والمجزأة التي أبقتها مقتضيات الانتاج الرأسمالي على قيد الحياة . وسوف يتيح تحويل العمل الحي في هذه الحال نحو وظائف « المراقبة » و « الإشراف » امكانية تغيير اتجاه الانتاج المادي نفسه وأهدافه . فبدلاً من أن يظل العمل البشري بضاعة تنتج بضائع أخرى حسب قانون القيمة البضاعية ، يمكن أن يتحول باتجاه الإنتاج لتلبية الحاجات الإنسانية حسب قانون الحرية ــ أي حسب حاجات وجود إنساني متحرر منعتق . والاختيار الجديد الذي يطل من هذا المنظور سيستوجب تدمير الثقافة المادية والفكرية . والشبح الذي يطلقه مجتمع الاستهلاك من قمقمه ليس هو شبح ثورة اقتصادية فحسب ، بل كذلك شبح ثورة ثقافية ، شبح حضارة جديدة لا تكون فيها الثقافة فرعاً له امتيازه من التقسيم الاجتماعي للعمل كما هي الحال الآن ، بل ستكون العامل الذي يحدد بنية المجتمع كاملاً ، في فروعه كافة ، بما فيها فروع الانتاج المادي ، والذي سيبدل تبديلاً جذرياً القيم والصبوات السائدة .

إن الصور المضادة والقيم المضادة التي يعارض بها اليسار الجديد صورة العالم الرأسمالي القائم تجسد مسبقاً ، في شكل ايديولوجي ، ذلك التغير . هذه الصور والقيم المضادة ترسم معالم سلوك متنزه عن روح المزاحمة ، وترفض قيم « الرجولة » الخشنة ، وتنزل إنتاجية العمل الرأسمالية عن عالي مكانتها الحالية ، وتؤكد حساسية الجسد وحسيته ، وتحتج على تدمير البيئة ، وتزدري البطولة الكاذبة ، بطولة « المآثر » الفضائية والحروب الاستعمارية ، وتناصر

حركة تحرر المرأة (بمقدار ما لا تطالب بأن تشاطر المرأة المتحررة بدورها الامتيازات المذكرة في مظاهرها القمعية) ، وتنكر العبادة الطهرانية ، المناوئة للإيروسية والجمال التشكيلي والنظافة : إن جميع هذه الميول والنزعات تسهم في إضعاف مبدأ المردودية ، وهي تعبر بلغة مبينة عن الضيق العميق الذي يعتمر في قلوب السكان بوجه عام .

لكن هذه القيم المضادة ، هذه المسالك المضادة هي بالتحديد التي تعزل الحركة الجذرية عن « الشعب » وتجعلها عرضة لعداء سافر . ولهذه العزلة أصل مزدوج : فمن ناحية أولى ، لا تتمتع النظرية والممارسة الاشتراكيتان ، الماركسيتان بأرض موائمة ، بـ « سبب كاف » في صفوف الغالبية الساحقة من السكان العاملين ، وهذا ما يترتب عليه – من ناحية ثانية – أن الفارق الجذري بين مجتمع حر وبين المجتمع القائم يظل غير واضح ، كما تظل غير واضحة امكانيات تأسيس مجتمع حر ، مع أنها إمكانيات في منتهى الواقعية . هكذا يبدو التحرر وكأنه تهديد ، ويتحول إلى تابو . وكلا تياري اليسار الجديد ، السياسي والهيبي ، ينتهك هذا التابو . وبصرف النظر عن كل رابطة تنظيمية وشخصية ، يلتقي هذان التياران عند نقطة بعينها : فمعالمهما وسماتهما المتحررة تعكس كيفيات اخلاقية وجمالية للاشتراكية تعرضت لانتقاص القدر ولوكس المنزلة اثناء تطور النظرية الماركسية بالذات [1]. هذه المعالم والسمات « تستبق » ، على المستوى الفردي أو على مستوى الجماعة الصغيرة ، الجوانب « الطوباوية » المتطرفة في الاشتراكية . وهي تبدو ، في إطار المجتمع القائم ، « امتيازاً » للعناصر الهامشية اللا منتجة او المناوئة للانتاج (وهي كذلك بالفعل ، وهكذا ينبغي أن تكون أصلاً في حدود الانتاج الرأسمالي) .

إن لليسار الجديد ، في تياره السياسي ، سيماء نخبوية في ظاهرها ، وذلك بحكم مضمونه الفكري ، على اعتبار أن هذا اليسار هو قضية « مثقفين »

---

(١) انظر الفصل الثاني التالي .

اكثر من قضية « عمال » . ولا مراء ، بالطبع ، في غلبة المثقفين (او المثقفين المعادين للثقافة) داخل الحركة . ومن يدري بالأصل ان لم تكن هذه الغلبة تعبر عن الاستخدام المتعاظم للمثقفين بمختلف انواعهم وضروبهم في البنية التحتية كما في القطاع الايديولوجي للسيرورة الاقتصادية والسياسية ؟ وفضلاً عن ذلك ، بقدر ما يفترض التحرر ولادة وعي مختلف اختلافاً جذرياً ، ولادة **وعي مضاد** قادر على اقتحام صنمية مجتمع الاستهلاك ، يفترض أيضاً معرفة وحساسية يلجمهما ويكبتهما النظام القائم ، لدى غالبية الناس ، بنهجه التربوي الطبقي . إن اليسار الجديد ، في المرحلة الراهنة ، هو في جوهره وبالضرورة حركة **فكرية** ، ولئن وجد في صفوفه من يجاهر بعدائه للفكر ، فهذه خدمة ممتازة تؤدى للنظام القائم .

هكذا نرى أن عزلة اليسار الجديد لها مبرراتها ، فهذه العزلة لا تدل على غياب الجذور الاجتماعية للحركة بقدر ما تتجاوب مع الموقف التاريخي الراهن وتلبيه ؛ وهي تعبر في الحقيقة عن « النفي المطلق » **لكل** ثقافة الرأسمالية الاحتكارية في أعلى درجاتها تقدماً . إنها تزيح النقاب عن هرطقة الثورة التي لا تضارعها هرطقة ، وذلك من حيث أن هذه الثورة مناقضة جذرية للثقافة القائمة — بما فيها ثقافة الطبقة العاملة ! وتجد امكانيات الثورة — أو بالأحرى ضرورتها — اكمل تعبير عنها واكثره واقعية في متطلباتها ومقتضياتها الفكرية والاخلاقية و « الفيزيولوجية » على وجه التحديد . ان التغير **الكيفي** هو وحده التغير ، والكيفية **الجديدة** للحياة هي وحدها التي تستطيع أن تضع حداً لسلسلة طويلة من مجتمعات الاستغلال . وتبدو هذه الجوانب والمظاهر المتطرفة ، بحكم كيفيتها الجديدة كل الجدة على وجه التحديد ، وكأنها بالبداهة ، الشاغل الايديولوجي لمثقفين يرتعون بقدر أو بآخر في رغد العيش .

تدلل الحركة ، بسبب عدم تقبلها الانفصال القائم فعلاً عن الجماهير ، وبسبب عدم تسليمها بأن هذا الانفصال يعبر عن البنية الاجتماعية للرأسمالية المتقدمة وبأنه لا سبيل إلى التغلب عليه ووضع حد له إلا بواسطة نضال مديد

يرمي إلى تغيير تلك البنية ، تدلل على عقد نقص وعلى روح انهزامية أو روح خمول ولا مبالاة . ومثل هذا الموقف يشجع ويسهل ابتعاد تيارها الهيبي عن السياسة وانصرافه إلى الشؤون الذاتية والخاصة ، في الوقت الذي لا يملك فيه التيار المتسيس أن يعارض ذلك إلا بطهرانيته السياسية ، في النظرية والممارسة على حد سواء .

(٥)

تظل النظرية الماركسية مرشد الممارسة ، حتى في وضع غير ثوري . لكن هنا نضع اصبعنا على نقطة أخرى من نقاط ضعف اليسار الجديد ، نقطة ضعف تشوه وتحرّف تلك النظرية إذ تحولها إلى **طقس** . وغني عن البيان أن المفاهيم المستخدمة في تحليل رأسمالية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لا يمكن أن تلصق لصقاً بمرحلتها الراهنة ؛ فهي تحمل في ذاتها ، بوصفها مفاهيم تاريخية ، علامة التاريخ ، والبنية التي تحللها بنية تاريخية . لا جدال في أن الرأسمالية رأسمالية في كل مرحلة من مراحلها ، ولا مراء في أن تنظيمها لنمط الانتاج هو بمثابة قاعدة وأساس لمجمل تطورها . بيد أن استطاعات نمط الانتاج تتطور هي الأخرى ، وهذه التغيرات تتناول القاعدة والبنية التحتية على حد سواء . وحين نعزل قاعدة رأسمالية لا تحول ولا تتبدل عن سائر قطاعات المجتمع ، نكون قد تخلينا من البداية عن النظرية الماركسية ببنائنا اياها على تجريد غير تاريخي ، غير جدلي . ثمة تغيرات تحدث في إطار الرأسمالية ، وهي داخلية ، تدرجية ، كمية ، لكنها ستفضي مستقبلاً إلى نقطة « القطيعة الكيفية » ، إلى موقف ممهد للثورة . أما حين نمتنع عن مواجهة المفاهيم الماركسية ومقابلتها بتطوير الرأسمالية ، ونمتنع بالتالي عن استخلاص نتائج ذلك بالنسبة إلى الممارسة السياسية ، فلا مفر من أن ينتهي بنا المطاف إلى تكرار آلي « مفردات قاعدية » ، إلى تحجير النظرية الماركسية في بلاغة تكاد ان تكون مبتورة الصلة بالواقع . وهذا ما يساهم في استلاب

اليسار الجديد ، ويثقل بوطأة على قدرته على تبليغ رسالته وإيصالها في المستقبل .

إن تحجر النظرية الماركسية ينتهك المبدأ الأول الذي ينادي به اليسار الجديد : **وحدة النظرية والممارسة** . فالنظرية التي لا تكون على مستوى ممارسة الرأسمالية ، والتي تكون متأخرة عنها ، لا تستطيع في ارجح الظن أن تكون دليلاً ومرشداً للممارسة الرامية إلى إلغاء الرأسمالية . إن اختزال النظرية الماركسية إلى « بنى » متحجرة يفصل النظرية عن الواقع ويسبغ عليها طابعاً مجرداً ، متعالياً ، زائف العلمية ، يسهل تحولها إلى طقس دوغمائي . إن كل نظرية ، بمعنى من المعاني ، مجردة ، إذ لا بد من استنباطها على شكل مفاهيم من الواقع المعطى حتى يكون في مستطاعها أن تجعل هذ الواقع مفهوماً وتتيح بالتالي امكانية **تغييره** . وهي تكون بالضرورة اكثر تجريداً ما دامت تضبط وتعقل ، في حالة النظرية الماركسية ، كلية مؤلفة من أوضاع وشروط وميول ونزعات : كلية تاريخية . ويترتب على ذلك أنها لا تستطيع أن تقرر بصدد هذه النقطة أو تلك من الممارسة الخصوصية ما إذا كان من المناسب أو غير المناسب ، على سبيل المثال ، الهجوم على هذا المبنى أو ذاك أو احتلاله ؛ لكنها تقدر ويجب أن تكون قادرة على إتاحة إمكانية تقدير وتقييم **منظورات وآفاق** الأعمال الخصوصية داخل الكلية المعطاة ، وفي المثال الذي ضربناه ، أن تحدد ما إذا كان الموقف السائد يستدعي أو لا يستدعي مثل ذلك الهجوم أو الاحتلال . إن الوحدة بين النظرية والممارسة ليست مباشرة قط . والواقع الاجتماعي المعطى ، الذي لم تتمكن بعد قوى التغيير من السيطرة عليه ، يتطلب أن يتم تكييف الاستراتيجية مع الشروط الموضوعية — وهذا شرط مسبق وضروري لتغيير هذه الشروط عينها . ان وضعاً غير ثوري يختلف في جوهره وأساسه عن وضع ثوري أو ممهد للثورة . ولا يمكن إلا للتحليل النظري وحده أن يتيح إمكانية استيعاب الوضع السائد واحتمالاته . إن الواقع المعطى قائم ههنا ، من تلقاء نفسه ، مدعوماً بقواه الذاتية : إنه المضمار الذي فيه تتطور النظرية ، وهو في الوقت نفسه الشيء الذي يستمر في تحديد النظرية

اثناء سيرورة التغير .

لقد لعب اليسار الجديد دوراً حاسماً كشرارة أشعلت فتيل سيرورة التغير . وإذا كانت الاقليات الملونة في الولايات المتحدة قد طفقت تتحرك ، وإذا كانت المعارضة الشعبية قد فضحت سياسة جرائم الحرب في الهند الصينية ، وإذا كانت وسائل الإعلام القوية قد دخلت في نزاع وصراع مع الحكومة ، فإن جميع هذه النجاحات يعود السبب فيها إلى حد كبير إلى مناضلي اليسار ، وبوجه خاص الطلبة . وفي فرنسا وايطاليا يشكل تجذير المطالب النقابية ، التي كانت « اقتصادية النزعة » فيما سبق ، وتجذير استراتيجية اليسار بأسرها (بعث المجالس العمالية) ، تحدياً للهيمنة القوية للجهاز الشيوعي الإصلاحي — بالرغم من التراجع الذي اعقب ايار ١٩٦٨ . وفي هذين القطرين أيضاً اصطدم تحجر النظرية الماركسية بتحاليل مبنية على تحولات الرأسمالية والقاعدة الكامنة للثورة . أما في الولايات المتحدة فإن الأوضاع الاقتصادية والسياسية تستدعي تحليلاً جديداً اكثر جذرية أيضاً ، ما يزال في بداياته[1] . وبانتظار التطور اللاحق لليسار الجديد ، لا يمكن للأقسام التالية ، التي احاول ان أقيّم وأقدر فيها وضع هذا اليسار في الولايات المتحدة ، إلا أن تكون جزئية تتلمس طريقها تلمساً .

---

(١) لنذكر بوجه خاص ، في فرنسا ، كتابات اندريه غورز وروجيه غارودي ، وفي ايطاليا كتابات جماعة المانيفستو . أما بالنسبة للولايات المتحدة فانظر « المجلة الشهرية » و « الثورة الاشتراكية » و « اميركا الجذرية » ، وكذلك بعض منشورات « المشروع التربوي الجذري » ، ومجموعة « إحياء الاشتراكية الاميركية » ، المصدر الآنف الذكر ، و « اليسار الجديد : «تاريخ ووثائق »، المنشور تحت إشراف ماسيمو تيودوري ، نيويورك ١٩٦٩ ، وبخاصة القسم الثاني . وخير الوثائق عن المحركات الأولى لليسار الجديد هي تلك التي قدمتها « صحيفة العامين الطالبية » تشرين الثاني ١٩٦٧ — حزيران ١٩٦٨ ، منشورات آلان شناب وبيير فيدال — ناكيه ، باريس ١٩٦٨ .

(٦)

يختلف الوضع الراهن لليسار الجديد اختلافاً جوهرياً عن الوضع الذي كان سائداً لحظة تشكلت المعارضة الجذرية وعرفت نتائجها الأولى على الصعيد القومي (حركة الحقوق المدنية ، مقاومة الحرب ، التحريض في المعاهد والجامعات ، الحركة الهيبية المتسيسة) . كذلك مضى زهاء عشرة أعوام على صياغة الاهداف التجاوزية : اخلاقية جديدة ، تحرر الحساسية ، مطلب « الحرية الفورية » ، الثورة الثقافية . ولم تكن المؤسسة القائمة مهيأة لذلك . فأمكن بالتالي للاستراتيجية أن تبدو شاملة ، سافرة ، هجومية إلى حد كبير . تظاهرات جماهيرية ، احتلال مبانٍ ، وحدة عمل ، ارتباط مع المناضلين السود . وقد انتهت هذه الحقبة حين باتت تأثير اليسار الجديد واضحاً اكثر مما ينبغي . وكان رحيل الرئيس جونسون ، ومعركة « الائتلاف الديموقراطي » في شيكاغو ، وتصعيد الحرب في الهند الصينية ، بمثابة بداية لمرحلة جديدة . ولم تكن الطبقة العاملة هي التي هددت النظام من الداخل ، بصورة جديدة لأول مرة ، وإنما الجامعات وأحياء الزنوج . وسرعان ما ادركت المؤسسة الحاكمة مدى جدية هذا التهديد بأوضح مما ادركها اليسار الجديد نفسه . وهي تقف الآن على أهبة الاستعداد — إلى درجة باتت معها الشكوك تحيط حتى ببقاء الحركة الجذرية كقوة سياسية ، على قيد الحياة . فماذا كان رد فعل الحركة على هذا الموقف الجديد؟

انها تبدو وقد أصابها وهن شديد إلى حد خطر . وهذا نابع أولاً من القمع العدواني ، الشرعي والمتجاوز الشرعية ، من قبل آلة السلطة : فأمام هذا التركيز للقوة الوحشية لا يملك اليسار وسائل دفاعية مناسبة . ثم إن استنفار السلطة هذا لقواها يزيد من حدة وتفاقم نقاط الضعف الملازمة لليسار الجديد ، أعني بشكل أساسي : النزاعات والصراعات الايديولوجية داخل المعارضة المناضلة وافتقار هذه الاخيرة إلى التنظيم .

لقد كان اليسار أبداً ودوماً منقسماً ، وهذا أمر طبيعي ، لأنه اذا كان المدافعون عن النظام القائم يتجمعون ويرصون الصفوف بالبداهـــة حول مصلحتهم المشتركة ، الملكية الخاصة ، وحول حماية مؤسساتها والذود عنها ، فإن اولئك الذين يرمون إلى الغاء النظام القائم لا توحد أو تجمع بينهم أهداف ملموسة لمس اليد إلى هذا الحد . فهم يعملون ضمن افق مفتوح ، متعدد الاختيارات والاهداف والاستراتيجيات والتكتيكات المختلفة .

لكن ذلك الانقسام لم يحل على الدوام دون الثورة ، بل لم يؤخرها ؛ يكفي أن نتذكر الصراع بين البلاشفة والمناشفة . وربما كانت هذه الصراعات هي الطريق الوحيد لامتحان الاستراتيجية « الصحيحة » ولوضعها على حجر محك الممارسة . بيد أن الوضع يختلف في كل مرة لا تكون فيها الحركة قد أرست جذورها بعد في قاعدة شعبية ، وبوجه خاص حين تصطدم ، بحكم ضعفها العددي ، باضطهاد سهل وناجع ؛ وبعبارة أخرى ، في كل مرة لا تكون فيها استراتيجية ثورية هي المطروحة على جدول الاعمال ، وإنما فقط إعداد العدة وتمهيد السبيل أمام مثل هذه الاستراتيجية . إن موقفاً من هذا القبيل يتطلب « تعليق » المنازعات الأيديولوجية السابقة لأوانها (أو الفائت أوانها) لصالح مهمة اعجل واكثر إلحاحاً ، هي مهمة التقوية العددية . إن الشرط المسبق للقفزة النوعية ، في مضمار الاستراتيجية الجذرية كذلك ، هو النمو الكمي .

ضمن هذا السياق تغدو مشكلة الاتصال مشكلة حادة . فكلما بدت الأهداف الكاملة ، « الطوباوية »، للاشتراكية أهدافاً تاريخية عينية ، ازدادت غرابة عن عالم التخاطب القائم . في « الشعب » يتكلم لغة تكاد أن تكون كتيمة بالنسبة إلى مفاهيم النظرية الماركسية وأطروحاتها . وهذا النفور من كلماتها الغريبة ، من « كلماتها الكبيرة » الخ ، ليس ثمرة تربية فحسب ، بل يعبر أيضاً عن مدى الخضوع للمؤسسة الحاكمة ، وبالتالي عن مدى الامتثال للغتها . واقتحام سطوة هذه اللغة يعني تحطيم « الوعي الكاذب » ،

أي اكتساب وعي حاجة التحرر وطرق الوصول إلى تلبيتها . لقد كانت النظرية والممارسة الماركسيتان قد نجحتا في تطوير الوعي السياسي لحركة العمل قبل السير القهقري إلى الوراء تحت تأثير هزيمة الثورات الاوروبية في عام ١٩١٨ واستقرار الرأسمالية . وقد انتهى الأمر بالنظرية الثورية ، وهي تراوح بين نزعة عماليـــة ناجعة ورأسمالية ناجعة ، إلى ان تتلبس طابعاً مجرداً ، فصارت الشغل الشاغل لأقليات صغيرة . وحيثما يكن هناك افتقار إلى تقاليد ماركسية راسخة ، يشتد ذلك الطابع بروزاً . وكما قلنا ، أدى الاختزال الشائع الدارج لمفاهيم ماركس الجدلية إلى مصطلحات « أساسية » إلى توسيع الهوة بين النظرية والواقع . فالمفاهيم الجدلية تضبط الواقع وتعقله في خلال سيرورة التغير ، وهذه السيرورة هي التي تكوّن تحديد المفهوم ذاته . هكذا يعيد تحول الامبريالية الكلاسيكية إلى امبريالية جديدة تحديد المفهوم الكلاسيكي إذ يبين كيف تتفرع الأشكال الجديدة عن تلك التي سبقتها وتقدمت عليها . كذلك هو شأن مفاهيم « البروليتاريا » أو « الاستغلال » أو « الإفقار » الخ . فقصف الناس بمثل هذه المصطلحات من دون ترجمتها طبقاً للوضع الراهن ليس بحال من الأحوال ايصالاً للنظريـــة الماركسية . وفي أحسن الاحتمالات لا تعدو أن تكون هذه المصطلحات علامات مميزة لجماعات المطلعين على الأسرار (من ماركسيين — لينينيين أو تروتسكيين أو غيرهم) ، وإلا فإنها تكون مجرد رواسم (كليشهات) ، أي ليس لها من وظيفة تؤديها البتة . إن استخدامها كمنبهات وحوافز مباشرة في مفردات معلبة هو بمثابة قتل لحقيقتها . أما المفاهيم الماركسية فهي تحدد الماهية من زاوية الواقع : فمعناها ينبثق من خلال تحليل « الظواهر » ، و « ظاهر » الرأسمالية المعاصرة مختلف غاية الاختلاف عن رأسمالية القرن التاسع عشر .

إن تحجر المفاهيم يزيف تحليل البنية الطبقية للرأسمالية الاحتكارية . وغالباً ما تقع الايديولوجيا الجذرية ضحية **صنمية العمل** ، وهي وجه جديد لصنمية البضائع (على اعتبار أن قوة العمل هي في خاتمة المطاف بضاعة) .

وثمة ثلاث سمات في النظرية الماركسية تجعل من الطبقة العاملة عامل الثورة الكامن : فهي وحدها التي تستطيع اولاً أن توقف عملية الانتاج ، وتؤلف ثانياً غالبية السكان ، وينفي وجودها بالذات ثالثاً إنسانية الإنسان . والحال أن السمة الأولى هي وحدها التي ما تزال ، من بين السمات الثلاث ، تميز الطبقة العاملة الاميركية التي يمكن بحق اعتبارها الوريثة المعاصرة للبروليتاريا أي ذوي « الياقات الزرق » . لكن التصور الماركسي يحدد **وحدة** تلك السمات الثلاث : فالبروليتاريا ، التي تؤلف غالبية السكان ، ثورية بحكم حاجاتها التي لا تملك الرأسمالية القدرة على تلبيتها . وبعبارة اخرى ، إن الطبقة العاملة هي عامل الثورة الكامن لا لأنها الطبقة المستغَلة في نمط الانتاج الرأسمالي فحسب ، بل أيضاً لأن حاجات هذه الطبقة ومطامحها وصبواتها تقتضي إلغاء نمط الانتاج هذا . ويترتب على ذلك أنه اذا لم تعد الطبقة العاملة « النفي المطلق » للمجتمع القائم ، وإذا صارت طبقة من طبقات هذا المجتمع تشاطره حاجاته ومطامحه وصبواته ، فإن انتقال السلطة إلى الطبقة العاملة وحدها (في اي شكل كائناً ما كان) لا يعني الانتقال إلى الاشتراكية بصفتها مجتمعاً مختلفاً من وجهة النظر الكيفية . وإذا كانت الطبقة العاملة تريد أن تصبح العامل الفعلي لذلك الانتقال ، فلا بد أن تتغير هي نفسها[1] .

إذا ما شحنت الحاجات التي تخلقها رأسمالية الاحتكارات ، ولا تستطيع أن تلبيها بقوة هدامة ، وإذا ما تحولت إلى تربة تغذي وتنمي وعياً سياسياً في أوساط السكان الكادحين ، فهذا لا يعني (وهذا شيء أساسي جوهري !) أن الوعي الطبقي البروليتاري قد انبعث ؛ ومثل تلك الظاهرة لن تؤلب طبقة

---

(١) كانت روزا لوكسمبورغ تعلم أن التبدل الجذري للطبقة العاملة هو جزء لا يتجزأ من شروط الاستراتيجية الثورية : فالطبقة العاملة لن تستطيع ان تحوز « الانضباط الذاتي للاشتراكية — الديموقراطية المقبول عن طواعية الا إذا استأصلت من شأفتها عادتها القديمة ، عادة الامتثال والخنوع ، لا على انه ثمرة الانضباط الذي تفرضه عليها الدولة الرأسمالية » ، « كتابات سياسية » فرانكفورت ١٩٦٨ ، المجلد ٣ ، ص ٩١ .

عاملة على سائر قطاعات السكان الكادحين ، ولا « اليد العاملة الأجيرة » على الرأسمال ، بل ستؤلب بالأحرى جميع الطبقات الكادحة على الرأسمال . ومن ثم فإن هذا الوعي الجديد سينتصب معارضاً بقوة الخط الهادي للسياسة النقابية الراهنة : فهو سيسعى إلى أن يضع حداً لنمط الانتاج القائم بتمامه . هذه هي دينامية رأسمالية الاحتكارات : فإزاء خضوع السكان اجمعين لشريعة الرأسمال ودولته تظهر حاجة عامة شاملة الى الغائه . واذا كان هذا التطور يدخل تعديلاً على المفهوم الطبقي الأصلي ، وإذا كان يخفف من حدة التباين الذي كان صارخاً في الماضي بين الطبقة العاملة المؤلفة من ذوي « الياقات الزرقاء » وبين قطاعات أخرى من السكان الكادحين ، فهذا لأنه ناجم عن تغيرات في **واقع** الرأسمالية ، تغيرات ينبغي تحويلها إلى مفاهيم في **نظرية** الرأسمالية .

إن هذه ، بالتأكيد ، مجرد ميول . وهي تواجه مقاومة شديدة من جانب بنية السلطة ، ولم تتوصل بعد إلى ردم الهوة بين الطبقة العاملة واليسار الجديد ، وبوجه خاص الانتلجانسيا الجذرية . والتهوين من شأن كراهية العمال وعدائهم لا ينفع البتة الانتلجانسيا الجذرية ، وهذا لأن عداءهم عقلاني وله ما يبرره . بيد ان ارتباط القوتين يظل شرطاً مسبقاً للتغيير ، ولا مناص من أن يتحول الوعي النقابي إلى وعي سياسي ، إلى وعي اشتراكي . ولن يكون الوصول إلى ذلك عن طريق « الذهاب إلى العمال » والمشاركة في فرق مضربيهم ، وتبني « قضاياهم » . لن يصبح الارتباط ممكناً إلا من خلال سيرورة تغير اجتماعي يكون لكل من الفئتين نشاطها فيها **انطلاقاً من قاعدتها بالذات** ، وبدلالة وعيها وشكاويها وتظلماتها . هكذا هي ، على سبيل المثال ، استراتيجية « البروليتاريا المنكوبة » الايطالية : « إن الطلبة والمثقفين الذين عملوا سابقاً داخل المجموعات القاعدية ما عادوا الآن يقومون بالتحريض لا داخل هذه المصانع ولا على أبوابها . فالدعاية السياسية المناضلة يقوم بها الشغيلة انفسهم ، ولا سيما الشبان منهم ، بينما يتجلى دعم الطلبة للعمال في تقديم مادة الدعاية ، وفي عمليات الاستقصاء التي تتم في اقسام شتى من المدينة

الخ ».[1] كذلك تنقسم تنظيمياً مجموعة « القاعدة العمالية » في مصانع رينو — فلان بفرنسا إلى فريق خارجي وفريق داخلي : فالأول يضم بوجه خاص « مثقفين » ، والثاني ، وهو أصغر حجماً بكثير ، يضم عمال المصنع . وما تزال المجموعة الداخلية أضعف من أن « تعرض إيقاعها وقيادتها على مجمل « القاعدة العمالية »[2] . ومثل هذا التقسيم (المؤقت) للوظائف ، الذي يتحاشى النزعة الأبوية وما يترتب عليها مباشرة من رد فعل سلبي ، قمين بأن يمهد السبيل أمام الوحدة وبأن يوفر لها عوامل النضج إلى أن تجد المصالح المختلفة الخاصة بكل مجموعة أو زمرة (على مستوى المصنع أو المخزن او المكتب أو الحي) نقطة التقائها واستراتيجيتها المشتركة[3] .

إن المسألة هنا تختلف كل الاختلاف عن « تطوير الوعي الطبقي من الخارج » ؛ فالجماعات الأقلوية ، التي ستقع على عاتقها مهام التنظيم ستكون مختلفة عظيم الاختلاف عن الطليعة اللينينية[4] . فقد كانت هذه الأخيرة

---

(١) Zeitdienst زوريخ ١١ ايلول ١٩٧٠ .

(٢) من نص قدمته جماعة « القاعدة العمالية » إلى عمال مصانع رينو ، ورد في « الأزمنة الحديثة » ، آب — ايلول ١٩٧١ ، ص ٦٣ .

(٣) راجع تيينو غرومباخ « بحثاً عن وحدة السياسة والحياة » في « الأزمنة الحديثة » ، آب — ايلول ١٩٧١ :

« للحفاظ على الجانب الهدام للاعمال الجزئية ينبغي على الدوام الانتقال من الخاص الى العام . فحين يكون محور النشاط هو مسألة السكن ينبغي أن تطرح مسألة المصنع ، وحين يتركز النشاط في المصنع ينبغي أن تطرح مشكلات « نوعية الحياة » . لا يجوز أن نسقط من جديد في تقسيم قطاعات النضال ، ذلك التقسيم الذي يميز الممارسة التحريفية . البروليتاري بروليتاري في كل مكان ! هذا هو الشعار الذي يتيح إمكانية تشريك النضالات والانتقال من ممارسة إصلاحية إلى الوعي الثوري » .

(٤) راجع « الأزمنة الحديثة » ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٦٥ : « نحن نريد ان يكون شكلنا التنظيمي تهيئة المجتمع الاخوي ، الحر ، الشيوعي ، الذي نتطلع إلى بنائه ، مجتمع بلا زعيم ، بلا تراتب هرمي .. وعليه نحن نريد من الآن تنظيماً مساواتياً لجميع اولئك الذين يرومون النضال بعبارة اخرى ، نحن نشرح ان القاعدة العمالية تنظيم « مرن » . فحين يكون هناك نضال ، يقع عبئه على تنظيم جميع العمال الثوريين والمكافحين.. وحين لا يكون هناك اتصال ، يكون التنظيم =

توفر القيادة ، النظرية والعملية ، للطبقة العاملة التي كانت تلك الطليعة راسخة الجذور فيها ، والتي كانت على تماس مباشر بالفقر والاضطهاد إلى درجة كانت تكفي معها خسارة حرب من الحروب لتنظيمها برسم العمل الثوري . ولقد كانت هذه الجماهير تشكل القاعدة البشرية لإعادة انتاج المجتمع مادياً . والحال أنه ليس هو كذلك الوضع السائد اليوم في المتروبولات الامبريالية .

فضلاً عن ذلك كانت الطليعة اللينينية يواكبها **حزب جماهيري** متكون أو في طريقه إلى التكوين . وكان هذا الحزب بالتحديد مبرر وجودها ، وإلا لكانت محض حركة بلانكية . أما اليوم فإن الأحزاب الشيوعية تلتزم ، حين تكون ما تزال أحزاب معارضة جماهيرية بـ « برنامج حد أدنى » في ممارستها على أساس من استراتيجية برلمانية . وتقر هذه الاحزاب في ممارستها ، من دون أن تسلم بذلك بحال من الأحوال في ايديولوجيتها الرسمية ، بالضعف السياسي لغالبية الطبقة العاملة وبموقفها غير الثوري في ظل الرأسمالية المتقدمة [1] — وهو على كل حال تقييم اكثر دقة بكثير من ذاك الذي تقدمه بعض شرائح اليسار الجذري . وبالرغم من هذه الاستراتيجية الإصلاحية لا تغدو الاحزاب الشيوعية مماثلة للأحزاب الاشتراكية — الديموقراطية في الماضي القريب أو في الحاضر . ذلك أن الاشتراكية — الديموقراطية ما تزال تمثل منظمات للطبقة ، كما ان الاحزاب والنقابات الشيوعية ما تزال المنظمات **الجماهيرية** الوحيدة التي تقف إلى يسار الاشتراكيين — الديموقراطيين . وبحكم هذا **الاستقطاب**

= تنظيم مناضلين ... لكن بلا حقوق أعلى من حقوق الآخرين ، لأن القاعدة العمالية ملك لجميع عمال المصنع الذين يرغبون في استخدامها ، سواء في النضالات الصغيرة على مستوى الورشات والمشاغل أم في المصادمات الكبيرة على مستوى المصنع بأسره أم في الكفاح الثوري ضد دولة ارباب العمل وفي سبيل الشيوعية » .

(١) هكذا ندد الحزب الشيوعي الفرنسي بشعارات كلاسيكية للنقابية الماركسية كالإضراب غير المحدود واستنفار العفوية ، واصفاً اياها بالفوضوية . وتقول كراسة ، وزعها « الاتحاد العام للشغل » بعد المحاولة « اليسراوية » لإطالة أمد إضراب مصانع رينو وتوسيع نطاقه في ايار ١٩٧١ . إن « العفوية لا وجود لها » (لوموند ، ٢٢ تموز ١٩٧١) .

السياسي ما تزال الاحزاب والنقابات الشيوعية تمثل قوة ثورية **كامنة** . أما فيما يتعلق بالولايات المتحدة الامريكية (وربما ليس فيما يتعلق بها وحدها) فلا بد أن نتساءل إذا لم يكن الحزب الثوري الجماهيري الممركز مركزة شديدة والمتسلسل هرمياً في بنيته قد فات أوانه في ظل شروط رأسمالية الدولة الاحتكارية . إن مثل هذا الحزب ينتمي إلى مرحلة متقدمة من التطور الرأسمالي ، إلى مرحلة كانت ما تزال ليبرالية بعد . ولقد كانت هذه الأحزاب تعمل ، حتى في حال مقاطعتها للانتخابات ، في إطار نظام برلماني ما تزال دائرة عجلته . لكن منذ أن أضحى البرلمان جهازاً من أجهزة الثورة المضادة ، خسرت الاحزاب حقل نشاطها السياسي : وهكذا تغدو كل معارضة جذرية معارضة من خارج البرلمان .

(٧)

لعلنا نواجه هنا النقطة الحرجة في استراتيجية اليسار . فتركز القوة والسلطان في المؤسسة الحاكمة السياسية والعسكرية على صعيد الأمة بأسرها تيار جارف يرغم إرغاماً على الانتقال إلى أشكال تنظيمية لا مركزية أقل عرضة من غيرها لخطر السحق والتدمير من قبل آلات القمع وأقدر من غيرها على التعبير عن النوى المتضاربة والمشتتة للتحطيم والتدمير . لقد أضفت رأسمالية الاحتكارات معنى عينياً جديداً على تعبير « الثورة من تحت » ، معنى الهدم المشترك[1] . فالاندماج التقني والاقتصادي للنظام على درجة من التلاحم والشدة يمسي معها انفجاره في نقطة حساسة واحدة قميناً بأن يؤدي بسهولة إلى توقف جدي في دوران عجلة النظام بمجمله . وهذا لا ينطبق فحسب على مراكز الانتاج والتوزيع المحلية ، بل ايضاً على المراكز المحلية للتعليم والإعلام والاتصال . وفي مثل هذه الشروط يمكن لسيرورة التفتت الداخلي

---

(١) : Subversive Grass Roots

أن تتلبس طابعاً لامركزياً ، مشتتاً ، « عفوياً » إلى حد بعيد ، كما يمكن لها أن تحدث في عدة مواضع في آن واحد أو عن طريق العدوى . ببد أن مثل هذه النقاط التي يحدث فيها توقف في دوران عجلة النظام أو انفجار محلي لا يمكن أن تغدو بؤراً للتغير الاجتماعي إلا إذا توفر لها توجيه وتنظيم سياسيان . عند هذا المستوى يبدو الاستقلال الذاتي المبدئي للقواعد المحلية جوهرياً وأساسياً لضمان تأييد السكان الكادحين الموضعيين ومؤازرتهم ولإعداد ملاكات جديدة برسم إعادة تنظيم الانتاج والتوزيع والمواصلات والتعليم .

إنني ألمّح هنا إلى الفكرة التي تعرف اليوم رواجاً شديداً في أوساط الجماعات الجذرية من اليسار الجديد والتي تقول إنه لا يدخل ولا يمكن أن يدخل في نطاق الحسبان ، في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، « الاستيلاء على السلطة » ، بمعنى شن هجوم مباشر على مراكز السلطان السياسي (على الدولة) بمؤازرة وتأييد من الجماهير وبتدخلها تحت قيادة احزاب جماهيرية مركزية . وأهم سببين يعترضان سبيل استراتيجية كهذه هما التاليان :

ـ اولاً ، تركز قوة عسكرية وبوليسية ساحقة بين يدي حكومة عمل ناجح .

ـ ثانياً ، الوعي الإصلاحي النزعة السائد في أوساط الطبقة العاملة .

هل يوجد حل تاريخي آخر ؟

لنعد إلى الأذهان مخطط الثورة البورجوازية : فقد وضعت البورجوازية يدها على السلطة الاقتصادية ضمن إطار مجتمع إقطاعي قبل أن تستولي على زمام السلطة السياسية . ومن المستحيل ، بلا جدال ، الاكتفاء بلصق هذا المخطط على الثورة الاشتراكية ؛ لكن في وسعنا أن نتساءل عما إذا كانت بعض المؤشرات لا تشير إلى أن الطبقة الكادحة قد تتمكن ، ضمن إطار النظام الرأسمالي ، من الاستيلاء على السلطة الاقتصادية ـ بدون السلطة السياسية ـ قبل الثورة . فقد يتحقق ذلك إذا ما أمسك الشغيلة بزمام الأمور

في المصانع والمتاجر فأعادوا تنظيم الانتاج وتوجيهه . والحال أن هذه هي الثورة على وجه التحديد ، الثورة التي ستفوز بالسلطة السياسية في خاتمة المطاف . فهل يمكننا في هذه الحال أن نتوقع ، ضمن إطار الرأسمالية ، تغيراً تدرجياً ينصب تأثيره على السلطة الاقتصادية (يحول التغير الكمي إلى تغير كيفي، بفضل تجذير مطالب الشغيلة وانتصاراتهم ؟) .

إن الميول التي تسير في هذا الاتجاه ملتبسة للغاية . ومن الممكن أن تقضي إلى اندماج اعظم للطبقة العاملة . وهذا الميل إلى الاندماج تزيح عنه النقاب بعض الجهود التي تبذلها الإدارة للتخفيف من حدة تقسيم العمل المسلسل وتجزئته ، ولتقليد الشغيل الفرد مسؤولية وإشرافاً على وحدة اكبر من النتاج .

ويشير استقصاء[1] حول هذا النوع من التجديدات التي ادخلت على عدد من المصانع الالكترونية الأميركية إلى أن تحسناً ملموساً في الانتاج وموقفاً اكثر ايجابية من قبل الشغيلة تجاه عملهم ومنشآتهم قد طرآ بنتيجة ذلك .

هل من المحتمل أن يؤدي هذا الميل إلى تجذير مبادرة الشغيلة إلى درجة كافية حتى تمسي سيطرتهم على نتاجهم ومهامهم الفردية معادلة لنهاية نمط الانتاج الرأسمالي نفسه ؟ أم أن في الإمكان ، على العكس ، حصر هذا الميل في حدود تحول دون حدوث تبدل جوهري في التسلسل المراتبي القائم في المصانع ؟ الحق أنه لا بد أولاً من أن يتطور وعي سياسي جذري لدى أعضاء الطبقة العاملة ، حتى يصير في الإمكان تجاوز حدود التسامح الرأسمالي فيما يتعلق بالرقابة العمالية . أما إذا لم يتطور مثل ذلك الوعي فستبقى الرقابة العمالية محايثة للنظام القائم ، ولن تمثل غير تعقيله . فالرقابة العمالية الثورية تفترض في حال قيامها أولوية العوامل السياسية على العوامل الاقتصادية والتقنية . وإذا ما تحقق التجذير السياسي لليسار ، فلا مناص من أن يطرأ وهن على النظام ، وفي خاتمة المطاف انفجار باتجاه إزالة الصفة المركزية والبيروقراطية

---

(١) : دير شبيغل ، ٤ تشرين الاول ١٩٧١ .

عنه ، وهي إزالة يقتضيها أصلاً الوضع العام لرأسمالية الاحتكارات ، أي تطورها المتفاوت واللامتساوي : فالرقابة العمالية في مؤسسات صناعية محددة أو في جملة محددة من المصانع ستكون بمثابة بؤر ما بعد رأسمالية (اشتراكية) في مجتمع ما يزال بعد رأسمالياً ، بؤر مشابهة للمراكز المدينية التي كانت تتركز فيها السلطة البورجوازية داخل مجتمع ما يزال بعد إقطاعياً .

ومثل هذا التطور سيلتقي حتماً ، فيما إذا تم ، بذلك النجاح الأولي الذي توّلفه في التقاليد الثورية « مجالس » الشغيلة (« السوفيتيات ») بوصفها منظمات لتقرير المصير الذاتي وللتسيير الذاتي (أو بالأحرى منظمات تمهد الطريق أمام التسيير الذاتي) في شكل هيئات شعبية محلية . ولا غنى عن إحياء هذه المجالس لا إزاء الاهتراء التاريخي للاحزاب الجماهيرية البيروقراطية فحسب ، بل كذلك إزاء ضرورة إيجاد ورثة تاريخيين لها ، ورثة قادرين على توفير مبادرة وتنظيم وقيادة تتناسب والوضع الراهن . وليس الوريث التاريخي للحزب الجماهيري المستبد بأمره (أو بالاحرى لقيادته التي لا تني تعيد انتاج نفسها بكل سلطاتها) هو الفوضى ، بل الانضباط الذاتي والسلطة المقبولة عن طواعية ، سلطة لا تستطيع أن تبرز إلى حيز الوجود إلا في معترك النضال ، ولا يقر بها إلا أولئك الذين يخوضون في معترك النضال . كما أنه لا يجوز أن تسقط نظرية المجالس واستراتيجيتها في صنمية « القاعدة » . فالتعبير **المباشر** عن رأي العمال والزراع — وبكلمة واحدة الشعب — وعن ارادتهم ومشيئتهم ليس في حد ذاته امراً تقدمياً ، وليس في حد ذاته قوة تغيير اجتماعي ، بل من الممكن أن يكون عكس ذلك تماماً . ولن تكون المجالس اجهزة للثورة إلا بمقدار ما تمثل الشعب **المتمرد** . وهي ليست في متناول اليد بكل بساطة ، جاهزة لأن تُنتخب في المصانع والمكاتب والأحياء ، وإنما يفترض ظهورها وعياً جديداً ، يفترض وضع حد لسطوة النظام على عمل الناس وعلى أوقات فراغهم .

إن الديموقراطية المباشرة ، أي خضوع كل تفويض بالسلطة لرقابة فعلية من « القاعدة » ، مطلب أساسي من مطالب إستراتيجية اليسار .

لكنهـــا بالضرورة مزدوجة الحد . لنأخذ مثـــالاً من الحركة الطالبية : المساهمة الفعلية للطلبة في إدارة الجامعة . فهذا المطلب يفترض ، من وجهة النظر السياسية ، أن تكون غالبية السلك الطالبي اكثر تقدمية من المدرسين والإدارة . اما في الحال المعاكسة فإن هذا التغيير ينقلب على اليسار . وهـــذه الحجة صحيحة ، لكن لا يترتب عليهـــا التخلي عن المطلب المـــذكور . وذلك لأنه من المحتمل ، في شروط محددة (شروط طويلة الأمد ، مرتبطة بالميول العريضة للتطور الاجتماعي) ، أن يكون للرقابة الطالبية من الفرص اكثر مما للتسلسل الهرمي الراهن للقيام بإصلاحات بالغة الضرورة ، وعلى الاستراتيجية اليسارية أن تحدد اتجاهها بدلالة مثل هذه الشروط .

إن هذا النمط من التقييم النقدي ينطبق أيضاً على مسألة اوسع وأرحب ، هي مسألة الرقابة العمالية . فقد تؤدي الرقابة العمالية إلى تخفيف مشاق العمل ودرجة صعوبته ، وإلى تنظيمه على نحو اكثر نجعاً وفاعلية ، وإلى تطوير مبادهة الشغيلة . لكن هذه التغيرات يمكن في الوقت نفسه أن تكون بالغة النفع للنظام الرأسمالي . لكن هذا لا يمنع أن يكون هذا المطلب قد أضحى قطباً من أقطاب الاستراتيجية الجذرية . ذلك لأن مثل هذه الرقابة قمينة ، على المدى البعيد ، بأن ترخي الحبل الذي يربط بين سيرورة العمل وسيرورة تراكم الرأسمال ، وبأن تقصي جانباً الحاجة إلى الانتاج برسم التبذير وإلى الإبطال المقصود لموضة المنتجات ، وبأن تمنح التكنولوجيا فرصتها للتحرر من القيود والتشويهات التي تتعرض لها في الوقت الراهن .

وتتجلى ازدواجية « القاعدة » كذلك في الشعار اليساري : « كل السلطة للشعب » فـ « الشعب » موضع البحث هنا لا يتمثل في اولئك الناس الذين يدعمون اليوم الديموقراطية البورجوازية : الناخبين ، المكلفين ، العدد الاكبر من اولئك الذين يعبرون عن آرائهم في رسائل إلى صحفهم تعد صالحة للطباعة . وفي الوقت الذي لا يملك فيه هذا الشعب البتة ، وبأي صورة من الصور ، سيادة ذاتية ، نراه يمارس سلطة كبيرة نسبياً بصفته الهيئة الانتخابية للحكام ،

وبصفته سلطة ثانوية تابعة للحكام . إن شعار « كل السلطة للشعب » لا يرجع إلى غالبية السكان (« الصامتة » في أحسن الفروض) كما هي متكونة اليوم ، وإنما مرجعه أقلية من ضحايا الغالبية : أولئك الذين قد لا يمارسون حتى حقهم في الانتخاب ، ولا يدفعون ضرائب لأنه ليس عندهم ما يستحق أن تفرض عليه ضريبة ، ونزلاء السجون والإصلاحيات ، واولئك الذين لا يكتبون رسائل إلى مدير صحيفتهم الذي يتولى طبعها . بيد أن ازدواجية الشعار تعبر مع ذلك عن حقيقة معينة ، وهي أن « الشعب » ، غالبية الشعب متمايزة ، **منفصلة** في الواقع عن حكومتها ، وأن حكومة الشعب بالشعب ما تزال معركة ينبغي انتزاع الغلبة فيها . وهذا يعني أن ذلك الهدف يفترض **أولاً** تغيراً جذرياً في حاجات الشعب ووعيه . وفي هذه الحال لن يكون الناس الذين ستتاح لهم المقدرة على التحرر نفس الناس ولا حتى نفس الكائنات الإنسانية التي تعيد اليوم انتاج الوضع القائم — حتى ولو كانوا نفس الأفراد .

ولئن كان صحيحاً أنه من الواجب أن يتحرر الشعب من عبوديته ، فمن الصحيح أيضاً انه ينبغي أولاً أن يحرر نفسه مما صنع بـــه في المجتمع الذي فيه يحيا . ولا يمكن لهذا التحرر المسبق أن يكون « عفوياً » ، لأن عفويـــة كهذه لن تعبر إلا عن القيم والأهداف المنبثقة من النظام القائم . ان التحرر الذاتي تربية ذاتية ، لكنه يفترض اولاً بما هو كذلك تربية عن طريق الآخرين . ففي مجتمع يشكل فيه المَنْفَذ اللامتساوي إلى العلم والإعلام جزءاً من البنية الاجتماعية ، يكون فيه التمايز والتناحر بين الذين يتربون والذين يربون أمراً محتوماً . فرسالة أولئك الذين تلقوا تربية أن يستخدموا علمهم ومعرفتهم ليساعدوا الرجال والنساء على اكتشاف قدراتهم الإنسانية الأصيلة وعلى التمتع بها . والتربية لا تكون أصيلة إلا إذا كانت سياسية ، والتربية السياسية في مجتمع طبقي مستحيلة التصور بدون قيادة تكونت وتدربت على نظرية المعارضة الجذرية وممارستها . وتكمن وظيفة هذه القيادة في « ترجمة » الاحتجاج العفوي إلى عمل منظم قادر على تطوير وتجاوز الحاجات والصبوات

المباشرة باتجاه إعادة البناء الجذرية للمجتمع ، وعلى تحويل العفوية المباشرة إلى عفوية منظمة .

ليست العفوية نقيض السلطة والهيبة ؛ فبمقدار ما تكون الممارسة الثورية انفجاراً **للحاجات الحيوية** التي لا تنصب بالضرورة ، كما رأينا ، على ضرورات الحياة المادية وحدها ، تكون ضاربة جذورها في العفوية ؛ لكن قد تكون هذه العفوية **خادعة** ، وقد تكون ناجمة عن تقمص حاجات اجتماعية اختلقها النظام القائم لكنها معاكسة لتحرر الوجود الإنساني . وهذه هي الحال اليوم بالضبط ، وعلى نطاق لا سابق له . فتلقيم الناس المبادىء والمذاهب والتحكم والتلاعب بهم بصورة مكثفة ، هذا كله يستدعي تربية مضادة وتنظيماً دفاعياً على نطاق واسع . والمشكل أن هذه الضرورة بالذات تصطدم بميول اليسار الجديد المناوئة للاستبداد .

إنه ليصعب علينا أن نصدر حكماً على هذه الميول ، كما لا نستطيع ان ندينها إدانة مبرمة بكل بساطة . فهي من جهة أولى استمرار للمعارضة التاريخية الصحيحة للأحزاب الجماهيرية البيروقراطية والمستبدة ، وهي من الجهة الثانية سابقة لأوانها وتعرض للخطر فاعلية الحركة . ومن منظار مجرد ، تعبر عن خاصة مميزة من خواص المعارضة الجذرية الحالية ، أعني كون هذه الأخيرة تستمد قوتها وحقيقتها من تأصل جذورها **في الفرد** بكامله ، ومن الحاجة الحيوية التي تخامر هذا الفرد إلى نمط حياة يحقق له المشاركة مع أفراد أحرار آخرين ، وإلى علاقة جديدة بالطبيعة — طبيعته الذاتية الخاصة به وكذلك الطبيعة المحيطة به .

يطرح المذهب الفردي الجديد مشكلة العلاقة بين التمرد الشخصي والتمرد السياسي ، بين التحرر الفردي والتحرر الاجتماعي . وما أسهل تناسي التناحر المحتوم ، التوتر الذي لا مفر منه بين هذين الاتجاهين ، وذلك لصالح دمج فوري ومباشر يدمر طاقات الاثنين الكامنة . وفي الحقيقة ، لا وجود هناك لتغير اجتماعي نوعي ، لثورة ممكنة ، من دون انبثاق عقلانية ، **وحساسية**

جديدتين لدى الأفراد أنفسهم ، ولا وجود هناك لتغيير اجتماعي جذري بدون تغير جذري في الصانعين الفرديين لهذا التغيير . بيد أن هذا التحرر الفردي يعني تجاوزاً للفرد **البورجوازي** ، ولا بد أن يتخطى هذا الفرد (الذي يبني نفسه عبر التوتر بين التحقيق الشخصي الخاص والمردود الاجتماعي) مع إعادته في الوقت نفسه إلى الأنا بعدها الحقيقي ، **تلك** « الخصوصية » التي أوجدتها في غابر الأيام الثقافة البورجوازية .

لكن لا سبيل إلى كبح الفرد البورجوازي وقهره بمجرد الاكتفاء برفض المردود الاجتماعي وبنفض اليد من كل شيء وبالانصراف إلى الحياة الخاصة . كلا ، لا ثورة بدون تحرر فردي ، لكن لا تحرر فردياً كذلك بدون تحرر المجتمع . هذا هو **جدل التحرر** : فكما أنه من غير الممكن القيام بترجمة فورية للنظرية إلى الممارسة ، كذلك لا يمكن أن توجد حاجات ورغبات فردية في الأهداف السياسية والعمل السياسي ، ويظل التوتر قائماً بين الواقع الشخصي والواقع الاجتماعي ، ولا يمكن للأول أن يؤثر على الثاني أصلاً إلا في وسط المجتمع الرأسمالي الذي يكتنفه . وعلى حد ق ل شاب جذري ألماني : إن تناقضات المجتمع القائم .. قد انتقلت إلينا جميعاً بقدر أو بآخر ، فجعلتنا بقدر أو بآخر بليدين ، مشبعين ، زائغين » . ونظراً إلى أن الثورة هي وحدها التي تستطيع أن تجد حلاً لهذه التناقضات ، تكون الحركة مكرهة على حملها ، ولكن بصفتها تناقضات **مدركة ، مفهومة** ، لها اعتبارها وحسابها عند إنشاء الاستراتيجية .

ليس في مستطاع اي تجربة للتحرر الفردي أو الفئوي أن تفلت من عدوى النظام عينه الذي تكافحه . ولا يمكن ان يصرف النظر عن مسببي العدوى ، ولا بد من مكافحتهم في معقلهم بالذات . وهذا معناه أن التحرر والرفض والفرار من قبل الأفراد والاشخاص يجب أن تتم من البداية داخل السياق السياسي ، وأن تتحدد بالموقف الذي تواجهه المعارضة الجذرية ، وأن تتابع ، في النظرية والممارسة ، النقد الجذري **للنظام** في داخل **النظام** . وبعبارة أخرى ،

ينبغي للتحرر والرفض الفرديين أن يدمجا **العام الشامل** في احتجاجهما الخاص ؛ ولا بد أن تبرز صور وقيم مجتمع الغد الحر في العلاقات الشخصية مع المجتمع غير الحر . وهكذا ، لا سبيل لأن تكون الثورة الجنسية ، مثلاً ، ثورة فعلاً إذا لم تصبح ثورة للكائن الإنساني برمته ، ثورة تلتقي في نهاية المطاف والأخلاق السياسية . وفي كل مجهود يبذل لخلق شروط رفض فعال **للنظام** ، ينبغي الحذر من تناسي الحقيقة الواقعة العارية التالية وهي أنه ليس في مستطاع أي فرد أو أي فئة خاصة أن يكونا حرين في مجتمع غير حر .

هكذا تتسم كل حركة للمعارضة الجذرية **بازدواجية موضوعية** تعكس في آن واحد قوة المؤسسة الحاكمة بكلية حضورها وحدود هذه القوة . والثورة الثقافية مهددة بأن تلجم وتستعاد . وا ينا أمثلة صارخة على ذلك في علم البيئة ورقصة الروك والفن ما بعد الحديث[1] . وأمام هذا التهديد تخلق المماثلة السابقة لأوانها بين الحرية الفردية والحرية الاجتماعية جواً مهدئاً مسكّناً اكثر منه منشّطاً موائماً للعمل الجذري ، وتقود إلى الفرار من العالم السياسي مع أنه العالم الوحيد الذي يمكن فيه أن تؤخذ الحرية . ولعل أخطر تهديد بتسكين أو « تهدئة » من هذا القبيل هو التهديد المحدق بـ « المشاعات »[2] .

فالمشاعات تظل نوى ممكنة ، « خلايا » ، مخابر لتجريب علاقات غير مستلبة ، علاقات لها سيادتها الذاتية . لكن العزلة واللاتسيس يترصدانها في الوقت نفسه . وهذا معناه ترضية ذاتية أو استسلام ، وكلاهما وجه معكوس للآخر ، لا نقيضه النوعي . إن التحرر هنا هو أن يتدبر الانسان أمره داخل النظام وأن « يتسلى » ، أو أن يمازحه ، أو حتى أن يخاتل معه . وليس ثمة ضرر من ممازحة النظام ، لكن ثمة مواقف لا يكون فيها المزاح في محله ، ويغدو على كل الاحوال غبياً ، لأنه لا يعدو أن يكون برهاناً على العجز

---

(١) انظر : الفصل الثالث .

(٢) المشاعات هنا هي الجماعات الهيبية وغير الهيبية التي اختارت في الولايات المتحدة أن تعيش حياة مشتركة جماعية . « المترجم »

والعنة السياسيين . ففي ظل الفاشية الهتلرية صمت الهجاء ، ولا يستطيع لا شارلي شابلن ولا كارل كراوس الصمود .

لا بأس أن يحيا الانسان حياته ، لكن آن الأوان لكي يدرك هذا الإنسان أن أي شيء كان لا يفي بالغرض، وإنما ما يشهد ويدلل — ولو ببالغ الرصانة والكتمان — على ذكاء وحساسية رجال ونساء قادرين على أن يفعلوا **اكثر** من مجرد أن يحيوا حياتهم ، أي أن يحيوا **ويعملوا** في سبيل مجتمع بلا استغلال . والمناضلون هم وحدهم الذين يستطيعون أن يشطروا العجب بالذات عن التحرر ، والتهريج عن السخرية ، والعصابات المجرمة عن المشاعات (وهي لفظة ينبغي أن تبقى مقدسة !) — على اعتبار أن هذا التمييز لا يمكن ان يترك لحكم المحاكم وتعسف البوليس . ووضع هذا التمييز موضع تطبيق يعني قمعاً ذاتياً ، تمهيداً ومقدمة للانضباط الثوري . كما ان التطلع الجريء إلى استفزاز البورجوازي واذهاله لم يعد يدرك غايته ، وذلك لأن البورجوازي التقليدي لم يعد له وجود ؛ فلم يعد في وسع اي « فحش » او أي جنون أن يصدما مجتمعاً جعل من « الفحش » تجارة رائجة وأضفى طابع المؤسسة على الجنون في سياسته واقتصاده .

إذا كان زمن التنظيم والانضباط الذاتي قد جاء ، فهذا لا يشهد على هزيمة ما ، وانما على آفاق المعارضة ومنظوراتها . فالمرحلة البطولية الأولى من تاريخ الحركة ، مرحلة العمل الفرح والمشهدي ، قد انتهت . ان المشروع الرأسمالي يقترب بسرعة من حدوده المميتة على صعيد الكرة الارضية بأسرها ، وهو يلجأ إلى تشديد العنف والاستعادة . ولقد كان الانسجام الهادىء المتناغم يوماً فيوماً بين الشيء السياسي وبين أن يحيا المرء حياته الخاصة علامة ضعف في اليسار الجديد ، تماماً كما كان كذلك رفض روح الجد ، على ضرورة هذا الرفض وسحره وجاذبيته . وإذا كان اليسار الجديد يريد أن يستمر في التطور إلى أن يغدو قوة سياسية فعلية ، فعليه أن ينشيء روح جد خاصة به ، أن ينشيء عقلانية وحساسية خاصتين به ؛ وبعبارة اخرى ، عليه أن

يتجاوز عقدته الاوديبية من وجهة نظر سياسية . أما اللجوء التقليدي اللاأصيل إلى الألفاظ البذيئة ، والايروسية الشرجية البورجوازية الصغيرة ، والقذارات المستخدمة كأسلحة ضد أفراد عاجزين ، فما هي إلا تجليات وتظاهرات لتمرد مراهق يخطىء هدفه . فالخصم لم يعد هو الأب او رب العمل أو الاستاذ ؛ وليس رجال السياسة والجنرالات والمدراء بآباء ، وليس الناس الذين يمارسون عليهم سلطانهم أشقاء متمردين . وفي المجتمع بوجه عام لا يعمر العصيان المراهق طويلاً ، ويبدو في كثير من الاحيان صبيانياً وتهريجياً .

صحيح أن هذه الصبيانية وهذا التهريج يبدوان على نحو واضح لا سبيل إلى نكرانه جزءاً لا يتجزأ من افعال احتجاج اصيلة ، في أوضاع تجد فيها المعارضة الجذرية نفسها معزولة وفي منتهى الضعف والوهن امام عدو كلي الحضور وفي منتهى القوة والبأس . وصحيح أن « النضج » هو بالتعريف من صنع **النظام** ، من فعل ما **هو كائن** ، وأن الحكمة الأخرى هي بالضرورة في هذه الحال حكمة المهرج والطفل . لكن حين يتلبس الاحتجاج مظاهر هي عين مظاهر **النظام** ، مظاهر ما يفرزه من حرمان وقمع ، فمصيره أحد اثنين : إما أن يمر مرور الكرام فلا ينتبه اليه أحد وإما أن السلطات تعاقبه بضمير **مرتاح** وبتأييد واسع من الشعب .

وثمة أفعال أخرى ، فردية أو فئوية ، يدينها النظام والليبيراليون في آن معاً بوصفها أعمال عنف (وهذا سوء استغلال فاضح للغة بالمقارنة مع العنف الذي يمارسه النظام) لها وظيفة تعليمية واضحة في منظور اليسار الجديد ، وبالتالي وزن سياسي مغاير جداً . من هذه الأفعال ، على سبيل المثال ، مقاطعة المحاكمات التي تزيح النقاب سافراً عن الطابع الطبقي لإدارة العدالة والقضاء ، والاحتلال السلمي للمباني التي تستخدم بلا مراء ولا جدال من قبل جهاز السلطة العسكرية او السياسية ، أو « مضايقة » الخطباء الذين يذودون بوضوح وبلا لبس عن سياسة الحرب والاضطهاد . ومثل هذه الأعمال تستأهل العقاب قانونياً ، وعقابها يزداد بالفعل صرامة . ليس من الممكن أن تقوم

اليوم مظاهرة تستطيع أن تبيح لنفسها ألا تأخذ بعين الاعتبار العنف الكلي الحضور (أهو كامن فحسب؟) للقوى الاضطهادية : فتصعيد العنف وتفاقمه جزء لا يتجزأ من الموقف . إن مجتمعنا هذا يقاتل حتى يفرض على المعارضة مبدأ اللاعنف ، مع ممارسته يومياً في الوقت نفسه عنفه الذاتي « المشروع ! » وبذلك يحمي الوضع القائم ويذود عنه . وبذلك ايضاً يتوجب على المعارضة الجذرية أن تحل مشكلة « اقتصاد العنف » ، لأن عنفها المضاد الذاتي يبشر بأن يكلفها غالياً في الحيوات البشرية وفي الحريات . فما القيمة السياسية للتضحيات المبذولة في هذه الشروط ؟

نادراً ما ساهم الشهداء في دفع قضية سياسية ما إلى الأمام ، ويبقى « الانتحار الثوري » انتحاراً . لكن لا بد مع ذلك من أن يكون المرء فريسياً في لامبالاته وعدم اكتراثه حتى يؤكد أنه خير للثوريين ان يحيوا من أن يقضوا نحبهم دفاعاً عن الثورة : فمثل هذا التوكيد اهانة للثوار الشهداء في كل زمان ومكان . وفي الوقت الذي يكرس فيه النظام قتلته المحترفين أبطالاً وينعت بالإجرام تمرد ضحاياه ، لا يسهل على خصومه أن يطالبوا بدورهم بلقب البطولة . إن الفعلة اليائسة ، المقضي عليها سلفاً بالفشل ، قد تمزق القناع لهنيهة من الزمن لتكشف وجود الاضطهاد الوحشي العاري ، وقد توقظ أيضاً وجدان المحايدين ، وكما قد تميط اللثام عن فظائع وأكاذيب مستورة مخفية . ومن يرتكب هذه الفعلة اليائسة هو وحده المؤهل لأن يحكم فيما إذا لم يكن الثمن مرتفعاً اكثر مما ينبغي ، وذلك من خلال قضيته الخاصة بوصفها قضية مشتركة . وسيكون كل تعميم في هذا الموضوع محفوفاً بالمخاطر ، او بالأحرى بعيداً غاية البعد عن الإنصاف ، وسيحكم على ضحايا **النظام** بآلام الانتظار الطويلة وبتأييد أوجاعهم . لكن الفعلة اليائسة قد تترك الأمور ، من ناحية أخرى ، على حالتها كما هي ، بل قد تزيدها تفاقماً على تفاقم هكذا نجد أنفسنا وقد عدنا رغماً عن أنوفنا إلى ذلك الحساب اللاإنساني الذي يفرضه علينا مجتمع لاإنساني . فمن جهة نزن عدد الضحايا واهمية تضحيتهم ،

وتوازنهما من الجهة الأخرى بالانتصارات المأمولة (أو التي يمكن بصورة معقولة أن تكون مأمرلة) .

إن التمييز بين العنف والقوة الثورية واجب . ففي الوضع الراهن المناهض للثورة يمثل العنف سلاح **النظام** ، ويؤدي عمله في كل مكان : في العمل وأثناء التسلية ، في الشارع وفي الطريق ، وفي كبد السماء . وبالمقابل لا وجود اليوم للقوة الثورية المنذورة لوضع حد لذلك العنف . وما المقصود بهذه القوة الثورية الا عمل الجماهير أو الطبقات القادرة على قلب **النظام** القائم في سبيل بناء مجتمع اشتراكي . ومن قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، الإضراب العام غير المحدود ، واحتلال المصانع ووضع اليد عليها ، وكذلك المباني الحكومية ومراكز النقل والمواصلات ، من خلال حركة منسقة . ولا تتوفر شروط عمل كهذا في الولايات المتحدة . وحقل النشاط المفتوح امام اليسار المناضل تغلقه حدود صارمة ، والمجهود اليائس لهذا اليسار لتوسيعه سينفجر مراراً وتكراراً في شكل امتحان للقوة المادية . إن على الحركة أن تراقب بنفسها هذه القوة وأن تمسك بزمامها، فالعمل الذي ينشد أهدافاً مبهمة، عامة ، لا تقع تحت اللمس ، لا معنى له ، بل إنه يزيد فضلاً عن ذلك عدد الخصوم . ومن قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، شعار « الصيف الحار » في فرنسا عام ١٩٦٩ الذي أدى إلى أعمال تخريب وتدمير بلهاء ، وعلى حساب « الشعب » اكثر منها بكثير على حساب الطبقة الحاكمة ؛ وكذلك تدمير مباني ومكاتب الشركات التي لا يرى فيها الجمهور « مجرمي حرب »؛ وهكذا دواليك .

(٨)

إذا كانت « ديموقراطية الغالبية المباشرة » ما تزال شكل الحكم أو الإدارة المرجو والمأمول لبناء الاشتراكية ، فإن « الديموقراطية البورجوازية » ما عادت تصلح لتقديم « ميدان عمليات » الانتقال إلى الاشتراكية . كذلك لم يعد في الامكان إعادة بنـــائها حيثما اختفت واضمحلت ؛ فالمنحدر

التوتاليتاري لرأسمالية الاحتكار يقـــف عقبة كأداء أمام هذه الاستراتيجية ، وفضح الديموقراطية الزائفة لرأسمالية الاحتكارات تلك والتشهير بها جزء لا يتجزأ من التربية المضادة السياسية . على أنه يتوجب على هذه التربية أن تأخذ في حسبانها ما هو **أصيل وحقيقي** في الديموقراطية الزائفة ، أي أن تقيس إلى أي حد تعبر الغالبية المندمجة ، المحافظة ، عن رأيها فعلاً ، وتختار بين احتمالات محددة ، وتحدد بالتالي مسار الشؤون الجارية ، وهذا في الوقت الذي تتولى فيه فئة حاكمة ، متعالية على كل رقابة شعبية ، بل برلمانية [1] ، إتخاذ القرارات التي تقرر مسائل الحياة أو الموت بالنسبة إلى الناس .

إن امبراطورية هذه « الديموقراطية » ما تزال تترك مكاناً لتشييد قواعد محلية للاستقلال الذاتي . والمتطلبات التقنية ، العلمية المتنامية للإنتاج والتسيير تحول الجامعات إلى مثل تلك القواعد ؛ أولاً من أجل **النظام** ذاته كمدارس لتدريب أطره ، ولكن كذلك ، وللأسباب عينها ، كمراكز تكوين وتأهيل للأطر **المضادة** مستقبلاً . وإنه لمن الضروري اللازب على الدوام مكافحة عقدة النقص السياسية الشائعة جداً في الحركة الطالبية ، أي فكرة أن الطلبة هم **مجرد** مثقفون ، « نخبة » صاحبة امتياز ، وبالتالي قوة تابعة لا يسعها أن تكون فعالة إلا إذا تخلت عن وضعها الخاص . فهذه الفكرة إهانة لأولئك الذين ضحوا بحياتهم أو ما يزالون يعرضونها للخطر في كل مرة يتظاهرون فيها ضد السلطة كائنة ما كانت . وإذا كان طلبة العالم الثالث طليعة ثورية حقاً ، يقع منهم آلاف الضحايا في مواجهة الإرهاب ، فإن دورهم في النضال التحرري يزيح النقاب عن سمة محددة من سمات الثورة الشاملة التي في سبيلها إلى الولادة ، أعني القوة الحاسمة لوعي جذري . في العالم الثالث يصوغ الطلبة صياغة مباشرة انتفاضة الشعب ؛ أما في البلدان الرأسمالية المتقدمة التي ليس لهم فيها (بعد) هذه الوظيفة الطليعية ، فإن وضعهـــم

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع ، راجع « وثائق البانتاغون » ، بوسطن ١٩٧١ .

الامتيازي يتيح لهم أن ينشئوا مثل ذلك الوعي (ويلزمهم بذلك) على صعيد النظرية والممارسة معاً ، في موقعهم وميدانهم بالذات ـ قاعدة الانطلاق للمعركة العامة . والحال أن الحركة الطالبية ، اسيرة صنميتها العمالية ، تنفر من التسليم ، بل تنفي وتنكر بكل بساطة أنها تملك في الأحرام الجامعية القاعدة التي تخصها بلا منازع في البنية التحتية بالذات . ناهيك عن أن هذه القاعدة تمتد من الأحرام الجامعية إلى **المؤسسات** السياسية والاقتصادية التي تستخدم « اليد العاملة المتعلمة » . بديهي أن الأطر العليا في هذه المؤسسات مكتوب عليها أن تعمل على تأييدها ، وأن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من التسلسل الهرمي . لكن انحطاط وضعها وتضاؤل حظوظها وفرصها في الترقي سيضعفان تضامنها مع **النظام** ، وسيزيدان من حدة النزاع في تكوينها وتأهيلها بين إمكانيات التحرر والاسترقاق الحالي للعلم والتكنولوجيا . بيد أن التطور الداخلي للعلم لن يقدم وحده أبداً حلاً للنزاع ؛ وسوف تكون الثورة العلمية الجديدة جزءاً من الثورة الاجتماعية .

لقد اقترح رودي دوتشكه[1] ، بهدف توسيع قاعدة الحركة الطالبية ، استراتيجية « المسيرة الطويلة عبر المؤسسات » : والمقصود بذلك العمل **ضد** المؤسسات القائمة من خلال العمل فيها ، لكن ليس عن طريق تخريبها من الداخل ، وإنما على العكس عن طريق « إتقان » المرء لمهنته وتعلمه (تعلمه كيف يبرمج ويقرأ لغة الناظمات الآلية ، وكيف ينظم الإنتاج ، وكيف يبتدع الجمالية الصناعية ، الخ) ومحافظته في الوقت نفسه على وعيه الذاتي من خلال عمله مع الآخرين .

إن المجهود المنسق لتشييد مؤسسات مضادة وتوطيد أسسها يؤلف جزءاً جوهرياً من تلك المسيرة الطويلة . ولئن كانت المؤسسات المضادة منذ أمد طويل من الزمن هدفاً من أهداف الحركة ، فإن ضعفها ودونيتها النوعية

---

(١) من زعماء الحركة الطالبية الألمانية « المترجم »

بالمقابل مردهما إلى قلة الموارد المالية إلى حد كبير . وعليه ، لا بد من توفير الأسباب التي تمنحها المقدرة على المنافسة . وهذا أمر هام بوجه خاص بالنسبة إلى تطور وسائل الاعلام الجذرية ، « الحرة » . إن قسطاً كبيراً من مسؤولية انعزال اليسار الجذري يقع على تفاوت مقدرته على التغلغل الجذري والمذهبة الكبرى . وكذلك الحال بالنسبة إلى تطور المدارس المستقلة و « الجامعات الحرة » فهي لن تملك المقدرة على الدخول في ميدان المنافسة ، أي على مواجهة التعليم الذي يموله النظام ، إلا بقدر ما تسد ثغرة ، أو إلا إذا كانت من نوعية عليا لا مختلفة فحسب . وللحصول على مبالغ كبيرة تتيح إمكانية تسيير فعال لتلك المؤسسات المضادة ، لا مناص من اللجوء إلى بعض تسويات . لقد فات زمن الرفض غير المتردد للمعاونات « الليبيرالية » — أو أنه لم يأت بعد . وفي إمكان المذهب الجذري أن يجني فوائد كثيرة من الاحتجاج « المشروع » على الحرب والتضخم والبطالة ، ومن الدفاع عن الحقوق المدنية — بل ربما من الانتخابات المحلية ولو على أساس « ضرر أقل » . إن الميدان الذي ينبغي أن تشاد عليه جبهة موحدة متحرك ، وأحياناً « وسخ » ، لكنه وحده الموجود ..

لقد نوهت بالدور الرئيسي للجامعات في المرحلة الراهنة : فهي ما تزال قادرة على أن تلعب دورها كمراكز تكوين وتأهيل للأطر المضادة . و « التجديد البنيوي » الضروري لضمان نجاح هذا الهدف يتجاوز حدود مشاركة طالبية وطيدة العزم وحدود تعليم غير تسلطي . كلا ، إن « تكييف » الجامعة مع عالم اليوم وعالم الغد معناه أن نطلب إليها أن تبرز وتسلط الضوء على الأحداث والقوى ، التي أوصلت الحضارة الى المستوى الذي هي عليه اليوم والمستوى الذي يمكن أن تكون عليه في الغد ، تلك هي بالتحديد التربية السياسية . ذلك أنه من الصحيح ، مهما كان في ذلك من مدعاة للأسف ، أن التاريخ يكرر نفسه ؛ والحد النهائي إنما ينبغي أن يوضع لتكرار الخضوع والسيطرة ذاك ، ولفعل ذلك لا بد من معرفة منشئه وسيرورة إعادة إنتاجه . هذا هو ، تحديداً ، الفكر النقدي .

تجد الأقلية المناضلة ، خلال هذه المسيرة الطويلة ، حليفاً قوياً لها ، مغفل الهوية ، في البلدان الرأسمالية . ويتمثل هذا الحليف في تدهور وضع الرأسمالية الاقتصادي والسياسي . لكن من الممكن أن يكون هذا التدهور بشيراً بنظام فاشي مطلق . وعلى اليسار الجديد أن يكافح بلا هوادة الفكرة التعيسة المفجعة التي تقول إن مثل هذا التطور قمين بتسريع مجيء الاشتراكية . فالتناقضات الداخلية للرأسمالية ما تزال تفعل فعلها في اتجاه انهيارها ، لكن من المحتمل إلى أبعد حدود الاحتمال أن يمثل نظام توليتاري فاشي ، قائم على أساس الموارد والطاقات الهائلة التي تتمتع بها الرأسمالية ، مرحلة في ذلك الانهيار . وفي هذه الحال ستعيد الرأسمالية إنتاج تناقضاتها ، لكن على الصعيد العالمي وفي الميادين كافة ، وهذا في الوقت الذي تظل فيه مناطق غير مغزوة ، متحررة من السيطرة والاستغلال والنهب . ثم إن فكرة الاشتراكية تفقد طابعها العلمي حين تذوب ضرورتها التاريخية في مستقبل غير محدد (ومشكوك فيه) . والميول الموضوعية لا تسير في اتجاه الاشتراكية إلا بقدر ما تنجح القوى الذاتية التي تناضل في سبيل الاشتراكية في أن تثني وتعطف تلك الميول باتجاه الاشتراكية ، وبقدر ما تنجح في ذلك الآن : حالاً وفي الغد وفي الأيام الآتية ... إن الرأسمالية تنجب بنفسها حفاري قبرها ، لكن وجه هؤلاء يهدد بأن يكون مختلفاً عظيم الاختلاف عن وجه معذبي الارض والتعساء والمعوزين .

(٢)

الطبيعة والثورة

(١)

لعل ما يعبر خير تعبير عن جدة المخطط التاريخي للثورة القادمة الدور الذي تلعبه حساسية جديدة في التغيير الجذري لـ « أسلوب » المعارضة . وقد رسمتُ المعالم العريضة لهذا البعد الجديد في « نحو التحرر » ؛ أما هنا فسأحاول جهدي أن أشير إلى ما هو موضع الرهان ، أعني العلاقة الجديدة بين الانسان والطبيعة ، طبيعته الخاصة والطبيعة المحيطة به . إن التحويل الجذري للطبيعة يصبح جزءاً لا يتجزأ من التحويل الجذري للمجتمع . وليست الحساسية الجديدة مجرد ظاهرة « سيكولوجية » لدى بعض الفئات أو الأفراد ، وإنما هي القناة التي يصبح التغيير الاجتماعي عن طريقها حاجة فردية ، محطة ارتباط بين « تغيير سعالم » بوصفه ممارسة سياسية وبين الطاقة المبذولة في سبيل التحرر الشخصي .

إن ما يحدث لنا هو أننا نكتشف ــ أو بالأحرى نكتشف من جديد ــ في الطبيعة حليفاً لنا في نضالنا ضد مجتمعات الاستغلال التي يزيد منها اغتصاب الطبيعة من حدة اغتصاب الإنسان وتفاقمه . هكذا يصبح اكتشاف قوى الطبيعة المحرِّرة ودورها الحيوي في بناء مجتمع حر عاملاً جديداً من عوامل التغيير الاجتماعي .

ماذا يترتب على تحرر الطبيعة من حيث انه سبيل إلى تحرر الإنسان ؟

إن مفهوم الطبيعة يعني : أولاً الطبيعة **الإنسانية** ، أي الدوافع والغرائز الأولى وحواس الإنسان من حيث أنها أساس عقلانيته وتجربته ، وثانياً

الطبيعة **الخارجية** ، أي المحيط الوجودي للإنسان و « الكفاح مع الطبيعة » الذي يشيد فيه مجتمعه . وينبغي أن نشير من البداية إلى أن الطبيعة ، في كلا مظهريها ، كيان تاريخي . فالإنسان يواجه الطبيعة بالصورة التي يكون المجتمع قد حولها بها ؛ الطبيعة الخاضعة لعقلانية خاصة صارت ، بدرجة متعاظمة على الدوام ، عقلانية تكنولوجية ، أداتية ، ممثلة لمقتضيات الرأسمالية . وقد اثقلت هذه العقلانية بوطأتها كذلك على طبيعة الانسان الخاصة ، على دوافعه وغرائزه البدائية . لنعد الى الأذهان شكلين معاصرين مميزين لتكيف الدوافع والغرائز الأولية مع حاجات **النظام** القائم : التلاعب الاجتماعي **بالعدوانية** الذي حوّل الفعل العدواني نحو أدوات تقنية ، وهذا ما يخفف من حدة الشعور بالذنب ؛ والتلاعب **بالطاقة الحسية** عن طريق تسفيل موجه ، طريق صناعة الجمال التشكيلي التي تخفف أيضاً من حدة الشعور بالذنب وتعد بالتالي بتلبية « مشروعة » .

تؤلف الطبيعة جزءاً من التاريخ ، وهي موضوع للتاريخ . وعليه ، لا يمكن أن يعني « تحرر الطبيعة » عودة إلى مرحلة ما قبل تكنولوجية ، وإنما قوام هذا التحرر ، على العكس ، استخدام متزايد على الدوام لنجاحات الحضارة التكنولوجية لتحرير الإنسان والطبيعة من سوء استعمال العلـــم والتكنولوجيا على نحو مدمر في خدمة الاستغلال . هكذا يمكن لكيفيات مفقودة من الصناعة اليدوية أن تعاود ظهورها بكل سهولة على اساس تكنولوجي جديد .

لقد اضحت الطبيعة نفسها ، في ظل المجتمع القائم ، بعد أن تمت السيطرة عليها بفعالية متزايدة باستمرار ، أضحت هي نفسها بدورها بعداً جديداً للسلطة التي تمارس على الإنسان : الساعد الأيمن ، استطالة المجتمع وسلطانه . لقد فرضت الطبيعة المتاجر بها ، الطبيعة الملوثة ، الطبيعة المستخدمة لأغراض عسكرية ، فرضت محيط الإنسان الحيوي ، وبكلمة واحدة لا محيطه البيئوي فحسب ، بل أيضاً الوجودي. وهذا ما يحول بين الإنسان وبين السبر —

والتحويل الإيروسي لمحيطه ، ويحرمه من لقاءاته مع الطبيعة خارج نطاق الاستلاب ؛ وهذا ما يمنعه أيضاً من أن يتعرف في الطبيعة ذاتاً لها استقلالها وسيادتها ، **ذاتاً** يمكن له أن يحيا معها حياة مشتركة في عالم إنساني . أما فتح الطبيعة للتسلية والتقارب الجماهيري ، سواء كانا عفويين أم منظمين ، فلا يحبط ذلك الحرمان ولا يضع حداً له ، وإنما هو مجرد صمام أمان يزيد في اغتصاب الطبيعة بلة على طين .

إن تحرير الطبيعة يعني استرجاع ما فيها من قوى تمجد الحياة وتعظّمها ، واسترداد تلك الخصائص الجمالية الحسية الغريبة عن حياة شوهتها وأفسدتها سلسلة لا متناهية من أعمال ونشاطات يمليها مبدأ المردود والمزاحمة ؛ وهذه الخصائص توحي بالخصائص والكيفيات الجديدة **للحرية** وتومىء إليها . لا داعي إذن لأن تأخذنا الدهشة إزاء رفض « روح الرأسمالية » أو سخريتها وهزئها من فكرة طبيعة محررة ، ونفيها لها إلى عالم الخيال الشعري . وإذا لم نترك الطبيعة لنفسها وعلى سجيتها ، وإذا لم نوفر لها الحماية وكأنهـا « ذخيرتنا » ، نكون قد عاملناها معاملة علمية عدوانية فكأنها لا وجود لها إلا لكي تقع تحت السيطرة ، أو كأنها مادة غير ذات قيمة . إن هذا التصور للطبيعة موقف تاريخي مسبق ، مطابق لشكل محدد من المجتمع . ومن الممكن كل الإمكان أن يكون لمجتمع حر موقف مسبق مغاير جداً ، وموضوع مختلف جداً ؛ ومن الممكن ان يقوم تطور التصورات العلمية على أساس خبرة بالطبيعة بصفتها كلية حياتية تتوجب حمايتها و « رعايتها » ، وفي هذه الحال ستستخدم التكنولوجيا العلم وستطبقه في إعادة بناء المحيط الحي .

السيطرة على الإنسان من خلال السيطرة على الطبيعة : ان الدور الذي تلعبه لدى اليسار الجذري الحملة في سبيل البيئة يسلط اليوم الضوء على الرابطة العينية الملموسة بين تحرير الانسان وتحرير الطبيعة . إن تلوث الهواء والماء ، والضجيج ، وتطاول الصناعة والتجارة على مساحات طبيعية شاسعة ، تثقل بباهظ وطأتها المادية والفيزيائية على الأفراد وكأنها رق ، أو كأنها حبس .

ومكافحة هذا كله هي في جوهرها نضال سياسي . لأنه لا تكاد تكون هناك حاجة للبرهان على مدى الارتباط الوثيق الذي لا يمكن أن تنفصم عراه بين اغتصاب الطبيعة والاقتصاد الرأسمالي . صحيح أن من السهل « تحييد » الوظيفة السياسية لعلم البيئة ، وصحيح أنه يمكن أيضاً قلبها لتمجيد **النظام** وتعظيمه ؛ لكن لا مفر مع ذلك من النضال الآن وهنا ضد التلويث الفيزيائي الذي يمارسه **النظام** ، مثله مثل تلويثه العقلي . وحتى يصل علم البيئة إلى النقطة التي لا يعود ينسجم فيها مع البنى الرأسمالية ، فلا مناص أولاً من تطوير الحملة البيئوية **داخل** هذه البنى [1] .

نادراً ما تفضح النظرية الاجتماعية العلاقة بين الطبيعة والحرية . فالطبيعة في نظر الماركسية أيضاً موضوع قبل كل شيء ، خصم الانسان في « صراعه مع الطبيعة » ، أي حقل تطور عقلاني بقدر أو بآخر للقوى المنتجة [2] . لكن الطبيعة تبدو ايضاً ، منظوراً إليها من هذا المنظار ، في ملامح ما **فعلته** الرأسمالية بها . مادة ، مادة أولية لإدارة البشر والأشياء الاستغلالية الغازية — فهل تتساوى صورة الطبيعة هذه مع صورة مجتمع حر ؟ هل الطبيعة مجرد قوة منتجة ، أم أن لها وجودها أيضاً « في ذاتها ولذاتها » ، وبالتالي ، وبحكم كيفية الوجود هذه ، بالنسبة إلى **الأنسان** ؟

تبدي الماركسية ، في تناولها للطبيعة الانسانية ، ميلاً مماثلاً إلى الاستهانة بدور العامل الطبيعي في التغيير الاجتماعي ، وهو ميل يتعارض عميق التعارض مع اتجاه كتابات ماركس في شبابه . صحيح أن « الطبيعة الانسانية » ستكون مختلفة في ظل الاشتراكية بقدر ما يطور الرجال والنساء وينمون ، لأول مرة في التاريخ ، حاجاتهم ومواهبهم ويكفلون لها التفتح من خلال المشاركة الانسانية ؛ لكن هذا التغير يكاد أن يعد نتيجة فرعية للمؤسسات الاشتراكية .

---

(١) انظر موراي بوكشن « علم البيئة والفكر الثوري » و « نحو علم بيئة تحريري » ، بركلي ١٩٧١ .

(٢) انظر ألفريد شميدت : « مفهوم الطبيعة في مذهب ماركس » ، فرانكفورت ١٩٦٢ .

وتشديد الماركسية للهجة على تطور الوعي السياسي لا يترك إلا حيزاً ضئيلاً لجذور التحرر لدى الأفراد ، أي لجذور العلاقات الاجتماعية بما تنطوي عليه ، بالنسبة إلى الافراد ، من تجربة مباشرة وعميقة إلى أبعد حد ممكن مع عالمهم وذواتهم ، وهذا عن طريق **حساسيتهم** وحاجاتهم الغريزية .

لقد زعمت في « نحو التحرر » أنه إذا لم يطرأ تغير على هذا البعد بالذات ، فسوف يعاود آدم القديم ظهوره في المجتمع الجديد ، وأن بناء مجتمع حر يفترض وضع حد لتجربة العالم المألوفة ، لتلك الحساسية الشوهاء البتراء . إن تجربة الحواس ، المشروطة والملجومة بعقلانية النظام القائم ، تنزع إلى تحصين الانسان ضد تلك التجربة الأخرى التي هي في غاية الغرابة ، تجربة امكانيات الحرية الإ نسانية . ويتلبس تطور حساسية جذرية في لاامتثاليتها أهمية سياسية حيوية أمام الشمولية والسعة المنقطعة النظير للرقابة التي فرضتها الرأسمالية ، وهي رقابة تغرز مخالبها حتى في المستوى الغريزي والفيزيولوجي للحياة والوجود . وبالمقابل ينزع التمرد والعصيان والمقاومة ، بدورها ، إلى الاستنفار والعمل على هذا المستوى .

« حساسية جذرية » : إن هذا المفهوم يؤكد الدور الفعّال ، البناء ، للحواس في تهذيب العقل وصياغته ، أي المقولات التي ينظم الانسان من خلالها العالم ويحس به ويغيره . ليست الحواس لا سلبية خالصة ، ولا منفعلة صرفة ، وإنما لها « تركيباتها » الخاصة التي تخضع لها المعطيات الأولى للتجربة . وليست هذه التركيبات مجرد « أشكال حدسية » خالصة (المكان والزمان): كان كانط قد رأى فيها أمراً قبلياً صارماً ينظم معطيات الحواس . فربما كانت هناك أيضاً تركيبات أخرى ، اكثر عينية بكثير ، اكثر « مادية » بكثير ، تؤلف معطى مسبقاً تجريبياً (وبعبارة أخرى ، تاريخياً) للإدراك . إن عالمنا لا ينبثق في اشكال زمانية ومكانية فحسب ، ولكن أيضاً ، **وفي الوقت نفسه** ، بصفته كلية من الكيفيات الحسية — ليست هي مجرد موضوع للعين ، وإنما لجميع الحواس البشرية (السمع ، الشم ، اللمس ، الذوق) .

وهذا التكوين الكيفي ، الأساسي ، اللاشعوري ، أو بالاحرى ما دون الشعوري ، لعالم التجربة بالذات هو الذي يفترض فيه أن يتغير جذرياً إذا كان يرام أن يكون التغيير الاجتماعي جذرياً ، كيفياً .

(٢)

إن الطاقة الهدامة للحساسية والطبيعة كمضمار تحرر هما موضوعتان مركزيتان في « مخطوطات ١٨٤٤ » . وقد قرئت هذه « المخطوطات » وأعيد قراءتها وتأويلها مراراً وتكراراً ، لكن هاتين الموضوعتين لبثتا مهملتين الى حد بعيد . وقد استخدمت « المخطوطات » مؤخراً في تبرير فكرة « الاشتراكية الانسانية » بالتعارض مع النموذج البيروقراطي — التسلطي السوفياتي ؛ وقد استخدمت كذلك كمحرك قوي في النضال ضد الستالينية وما بعد الستالينية . وإني لأعتقد أن هذه الكتابات تتماشى ، بالرغم من طابعها ما قبل العلمي وبالرغم من وقوعها تحت التأثير الغالب لمذهب فيورباخ الطبيعي الفلسفي ، مع أكمل فكرة عن الاشتراكية واكثرها جذرية ، وانا « الطبيعة » تجد فيها على وجه التحديد مكانها في نظرية الثورة .

سأوجز هنا الفكرة الرئيسية في « المخطوطات » . فما ركس يتكلم عن « التحرر الشامل لجميع الحواس ولجميع الصفات الانسانية »[١] ، على اعتبار أن هذا التحرر سمة مميزة للاشتراكية ؛ وهذا التحرر هو وحده « إلغاء الملكية الخاصة » . وهذا معناه ظهور نمط إنساني جديد ، مغاير في طبيعته وفيزيولوجيته بالذات للكائن الإنساني في المجتمع الطبقي : « إن **حواس** الانسان الاجتماعي هي **غير** حواس الإنسان اللااجتماعي[٢] » .

يعني « تحرر الحواس » فيما يعني ، أنها تصبح عملياً فعالة في إعادة بناء المجتمع ، وأنها تولّد علاقات جديدة (اشتراكية) بين الإنسان والانسان ،

---

(١) كارل ماركس : « مخطوطات ١٨٤٤ »، المنشورات الاجتماعية ، باريس ١٩٦٩ ، ص ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

بين الانسان والاشياء ، بين الانسان والطبيعة . لكن الحواس تصبح أيضاً « منابع » **لعقلانية** جديدة (اشتراكية) ، متحررة من عقلانية الاستغلال . فالحواس المنعتقة ستنبذ وتنحي جانباً عقلانية الرأسمالية الأداتية مع حفاظها على منجزات هذه الرأسمالية وتطويرها اياها . وهي ستدرك هذا الهدف بطريقتين : **سلباً** وذلك بقـــدر ما لا يعود الأنـــا والآخر والعالم تدرك في سياق الاستحواذ العدواني والمزاحمة والامتلاك الدفاعي ، **وإيجاباً** عن طريق « التملك الإنساني للطبيعة » ، أي تحويل الطبيعة إلى محيط ، إلى وسط للكائن الإنساني من حيث انه « كائن نوعي » ، حر في أن يكفل التفتح لمواهبه الإنسانية نوعياً : المواهب الخلاقة ، الجمالية :

« إنما بفضل ثروة الماهية الانسانية المتفتحة موضوعياً ، تكون ثروة قدرة **الإنسان** الذاتية على الإحساس إما نامية بادىء ذي بدء ، وإما منتجة ، وبفضلها أيضاً تصبح أذن موسيقية ، وتدرك عين جمال الشكل ، باختصار ، تصبح **الحواس** قادرة على التمتع الإنساني ، تصبح حواساً تؤكد نفسها قوى جوهرية للانسان »[1] .

إن الحواس المنعتقة ، بالتضافر مع علم طبيعي ينطلق منها ، ستكون بمثابة دليل ومرشد لـ « التملك الإنساني » للطبيعة . وفي هذه الحال تكون هذه الطبيعة قد « فقدت نفعها المحض ، على اعتبار أن النفع اضحى هو النفع الإنساني[2] » ، ولن تعود تبدو مجرد مادة ــ مادة عضوية أو لا عضوية ــ لتصبح قوة من قوى الحياة لا تدين لأحد بشيء ، ولتغدو ذاتاً وموضوعاً في آن واحد[3] . إن الصراع في سبيل الحياة هو الجوهر المشترك بين الانسان

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ : « إن الشمس موضوع النبات ، موضوع لا غنى للنبات عنه ويؤكد حياته ؛ كذلك ، ان النبات موضوع الشمس من حيث أنه يظهر للعيان قوة الشمس المحيية » .

والطبيعة . وعلى هذا الاساس سينزل الإنسان نفسه منزلة موضوع حي . وسيكون في مستطاع [1] الحواس آنئذ أن « ترجع إلى **الشيء** لذات الشيء .. » وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بقدر ما يكون الشيء هو نفسه مسلكاً إنسانياً متموضعاً ، تموضعاً للعلاقات الانسانية ، وبالتالي على صلة إنسانية بالانسان .

هذا التصور الميتافيزيقي ، اللاعلمي إلى حد مهين ، يجسد مقدماً نضج النظرية المادية : فهو يعقل عالم الاشياء من حيث أنه كد إنساني متموضع ، ومن حيث أنه متشكل ومجبول على هيئة معينة بهذا الكد . وعلى العكس من ذلك ، إذا ما أنتج هذا النشاط الإنساني التكويني المحيط الطبيعي لمجتمع استحواذي وقمعي ، فإنه ينتج في الوقت ذاته طبيعة متجردة من الصفة الانسانية ؛ والتغير الاجتماعي الجذري يستدعي بالضرورة تحويلاً جذرياً للطبيعة .

فهل يترتب على ذلك تحول مماثل في **علم** الطبيعة ؟ الطبيعة بوصفها تجلياً للذاتية : إن هذه الفكرة تبدو وثيقة **الصلة** بالنظرية الغائية[2] التي ضرب حولها منذ أمد طويل طوق من التحريم في العلم الغربي . فالطبيعة من حيث أنها موضوع في ذاته توائم كل المواءمة الموقف الرأسمالي من المادة بصورة لا تسمح بالتحرر من إسار طوق التحريم ذاك الذي يبدو قابلاً كل القابلية للتبرير بحكم تزايد فعالية وربحية السيطرة على الطبيعة التي تم الوصول إليها في عهد الرأسمالية .

هل صحيح أن الاعتراف بالطبيعة بوصفها ذاتاً يمت بوثيق الصلة إلى نظرية غائية ميتافيزيقية تتنافى والموضوعية العلمية ؟ لنثبت هنا وجهة نظر جاك مونو حول معنى الموضوعية في العلم :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٢) نظرية تقول إن كل ما هو موجود في الطبيعة موجود لغاية معينة .

« ما حاولت أن أبينه ... هو أن الموقف العلمي يستدعي ما أسميه بالمسلمة الموضوعية ، أي المسلمة القائلة إن الكون بلا خطة ، بلا نية مبيتة »[1] .

إن فكرة تحرر الطبيعة لا تشترط البتة لا خطة ولا نية من هذا القبيل في الكون : فالتحرر هو الخطة والنية الممكنتان للكائنات الإنسانية وقد طبقتا على الطبيعة . بيد أن ما تشترطه بالمقابل هو أن الطبيعة يمكن أن تكون موضوعاً لمشروع كهذا وأنها تحتوي على قوى جرى تزييفها وخنقها ، قوى كان يمكن أن توازر وتعظّم حرية الإنسان . ومن الممكن أن نطلق على مقدرة الطبيعة هذه اسم « الصدفة » أو « الحرية العمياء » ، ولعلها تضفي معنى موفقاً على المجهود الإنساني المبذول لموازنة كفة ذلك العمى . والمسألة في نظر آدورنو هي مساعدة الطبيعة على أن « تفتح عينيها » ، مساعدتها « في هذه الدنيا على أن تغدو ما قد يحلو لها أن تكونه[2] » .

إن فكرة الطبيعة بوصفها ذاتاً بلا غائية ، بلا « خطة » ولا « نية » لهي فكرة تتساوق على أحسن وجه مع التصور الكانطي عن « غائية بلا غاية ». وفي الحقيقة لم يتم حتى الآن استكشاف المدلول الثوري حقاً لإجراء مفاهيم « النقد » الثالث[3] . فالشكل الجمالي في الفن يرتبط بالشكل الجمالي في الطبيعة ، او بالاحرى يتطلع إليه ويصبو . وإذا كانت فكرة الجمال تخص الطبيعة والفن على حد سواء ، فليس هذا محض تشابه ، وليس تصوراً إنسانياً ملصقاً إلصاقاً بالطبيعة ، وإنما هو إدراك لكون الشكل الجمالي ، بصفته علامة حرية ، هو كيفية (أو لحظة ؟) لوجود العالم الانساني والعالم الطبيعي على حد سواء ، كيفية موضوعية . هكذا ينسب كانط الجمال في الطبيعة « إلى ما تتمتع به من مقدرة على أن تعطي نفسها ، بدون غايات خاصة ، وطبقاً

---

(١) من مقابلة صحفية في « نيويورك تايمز » في ١٦ آذار ١٩٧١ .

(٢) تيودور آدورنو : « النظرية الجمالية » ، فرانكفورت ١٩٧٠ ، ص ١٠٠ و ١٠٧ .

(٣) هو كتاب كانط الثالث بعد « نقد العقل الخالص» و « نقد العقل العملي »، وهو « نقد الحكم » .

لقوانين الكيمياء عن طريق تحرير المادة النافعة للتنظيم ، اشكالاً تعبر عن غائية جمالية »[1] .

يفهم التصور الماركسي الطبيعة على أنها عالم يصبح الوسيلة المناسبة للمتعة الانسانية بقدر ما يمكن للانسان أن يستعيد ويعتق قوى الطبيعة الذاتية وكيفياتها المكافئة . و « التملك الانساني » للطبيعة ، المتعارض مطلق التعارض مع استغلالها الرأسمالي . سيكون غير عنيف ، غير مدمر ، موجهاً نحو الكيفيات الحسية ، الجمالية ، المجوّدة للحياة ، الملازمة للطبيعة والمحايثة لها . وحين يتم تحويل الطبيعة و « أنسنتها » على هذا النحو ، تغدو مرتكزاً للانسان في نضاله في سبيل تفتحه ، بل ان هذا التفتح لن يكون ممكناً أصلاً بدون مثل هذا التحويل للطبيعة . إن للاشياء « قياسها المضبوط[2] » ؛ وهذا القياس كائن فيها ؛ إنه الطاقة التي تشتمل عليها ؛ والانسان هو وحده الذي يستطيع أن يحررها ، فيحرر بالتالي طاقته الانسانية الذاتية . إن الانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن « يصنع طبقاً لقوانين الجمال »[3] .

جمالية التحرر ، الجمال من حيث أنه « شكل » للحرية : فلكأن ماركس تملص وتنصل فيما بعد من هذا التصور المثالي ، الإنساني الشكل . لكن هذا المنظور المثالي في الظاهر ، أليس هو بالأحرى **تطويراً لنقطة الإنطلاق** المادية ؟ ذلك أن « الإنسان هو مباشرة **كائن من كائنات الطبيعة** ؛ .. كائن طبيعي ، من لحم وعظم ، محبو بقوى طبيعية ، حي ، واقعي ، محسوس ، موضوعي ، يعني القول بأن موضوع كينونته ، موضوع تجلي حياته ، عبارة عن مواضيع واقعية ، محسوسة ..[4]) . وحواسه ، « مثلها مثل الأعضاء التي هي في الجذريين : « انيك نيكسون »، فإنه يربط ارفع أشكال المتعة الجنسية بأرفع

---

(١) ترجمة ج . جيبلان ، باريس ١٩٤٢ ، ص ١٦٣ .
(٢) ماركس ، المصدر الآنف الذكـــر ص ٦٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

شكلها أعضاء اجتماعية بصورة مباشرة[1] » ، نشيطة ، عملية ، في « تملك » العالم الموضوعي ؛ وهي تعـبر عن الوجود الاجتماعي للانسان ، عن « تموضعه » . هكذا لا نعود هنا امام مذهب فيورباخ الطبيعي ، بل على العكس أمام المادية التاريخية المرفوعة إلى بعد مدعو إلى أن يلعب دوراً حيوياً في تحرر الانسان .

بيد أن هناك مع ذلك حداً داخلياً دقيقاً لفكرة تحرير الطبيعة عن طريق « التملك الانساني » . فصحيح أن البعد الجمالي بعد حيوي للحرية ، وصحيح أنه ينبذ العنف والقسوة والوحشية ، وأنه مطالب بالتالي بأن يكون له مظهر صفة اساسية من صفات مجتمع حر ، لا بصفته مضماراً منفصلاً من « الثقافة العليا » وإنما بصفته قوة محركة **ومتحركة لبناء** مجتمع حر . بيد أن بعض الوقائع الحام ، التي لم يتم تجاوزها وربما التي لا يمكن تجاوزها ، تدعو إلى الشك والريبية . فهل سيتوصل التملك الإنساني للطبيعة في يوم من الأيام إلى تنحية العنف والقسوة والوحشية في التضحية اليومية بالحياة الانسانية في سبيل إعادة الانتاج الفيزيائي للحياة الانسانية؟ إنها لفكرة رائعة أن نعامل الطبيعة « لذاتها » ، لكننا بكل تأكيد لا نأكل الحيوان لصالحه وخيره ، كما لا نستهلك النبات ترضية له وإمتاعاً . إن نهاية هذه الحرب والسلام التام في العالم الحيواني هما من باب الأسطورة الأورفية ، لامن باب واقع يمكن تصوره تاريخياً . وإزاء الآلام التي ينزلها الانسان بالانسان ، يبدو من « السابق لأوانه » إلى حد رهيب شن حملة في سبيل النباتية الكونية أو في سبيل المنتجات الغذائية الصناعية ؛ وما دام العالم على ما هو عليه ، فمن الواجب أن تعطى الأولوية للتضامن الإنساني مع الكائنات الانسانية ؛ وهذا من دون أن نضرب صفحاً عن حقيقة أننا لا نستطيع أن نتخيل مجتمعاً حراً لا يبذل ، بموجب « عقله الناظم » مجهوداً منسقاً للتخفيف إلى اكبر حد ممكن من الألم الذي يفرضه الانسان على العالم الحيواني .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

يبقى بعد هذا في الفكرة الماركسية عن التملك الإنساني للطبيعة شيء من وقاحة السيطرة . فـ « التملك » ، مهما يكن إنسانياً ، يبقى تملكاً لموضوع (حي) من قبل ذات . وفيه تطاول على كل ما هو مغاير للذات التي تتملك ، وعلى كل ما هو موجود في شكل موضوع بمحض إرادته — أي في شكل ذات ! ومن الممكن جداً أن تكون هذه الذات معادية للانسان ، وفي هذه الحال تكون العلاقة المحتملة علاقة صراع ؛ لكن من الممكن أيضاً أن يتراجع الصراع ويتقهقر ويخلي مكانه للسلام والطمأنينة والتفتح . وفي هذه الحالة الاخيرة لن تكون العلاقة غير الاستغلالية هي التملك بل نقيضه : التنازل ، القبول ، ترك الآخر يحيا حياته .. لكن مثل هذا التنازل يصطدم بمقاومة المادة التي لا يسبر لها غور ؛ فليست الطبيعة تجلياً لـ « الفكر » ، وإنما هي بالأحرى حده الأساسي .

(٣)

إن المنظور التاريخي ، في الوقت الذي لا يقول فيه بغائية ولا ينسب إلى الطبيعة « خطة » بل يرى فيها بعداً من أبعاد التغير الاجتماعي ، يرى فعلاً فيها ذاتاً — موضوعاً ، كوناً محبواً بإمكانياته وضروراته ومجازفاته الذاتية . وهذه الامكانيات قد لا تكون موجودة على نحو كامن من حيث أن وظيفتها غير مقدرة حق قدرها في النظرية والممارسة . ولكن أيضاً من حيث أنها حاملة **لقيم موضوعية** . هذه القيم هي التي ترجع إليها تعابير من أشباه « اغتصاب الطبيعة » و « خنق الطبيعة » . والمقصود بذلك أن عمل الإنسان ضد الطبيعة وعلاقات الانسان مع الطبيعة تتنافى وبعض **الكيفيات** الموضوعية المحددة التي تتمتع بها الطبيعة ، كيفيات هي ضرورية وأساسية لتفتح الحياة وتمجيدها . وإنما على مثل هذه الأسس الموضوعية يكون تحرير الانسان لمواهبه الانسانية الذاتية مرتبطاً بتحرر الطبيعة ، وعلى هذه الاسس أيضاً يمكن أن نعزو « حقيقة » ما إلى الطبيعة لا بتعابير رياضية فحسب بل كذلك

بمعنى وجودي . إن تحرر الإنسان يمر عبر الاعتراف بمثل هذه الحقيقة في الأشياء في الطبيعة . هنا تلتقي الرؤية الماركسية مع النظرية القديمة عن المعرفة بصفتها **تذكراً مهماً** ، عن « العلم » بوصفه **إعادة** اكتشاف **لشكل** الاشياء الحقيقي ، المشوه والمنمي في الواقع القائم ، أي **النواة المادية الدائمة للمثالية**. و « المثال » ، وهو الاسم المعطى لذلك **الشكل** ، ليس فكرة « خالصة » ، ليس محض فكرة ، وإنما ايضاً صورة تسلط الضوء على التزييف والتشويه اللذين « تمثل » بهما الأشياء ، وتكشف الفجوة في الادراك الاعتيادي لهذه الاشياء ، في التجربة الشوهاء التي هي من صنع المجتمع .

ليس التذكر إذن هنا استعادة لذكرى عصر ذهبي (لم يكن له وجود قط) ، لذكرى براءة طفولية أو الانسان البدائي ، الخ . وإنما هو بالاحرى ، ومن حيث أنه قدرة علومية ، تركيب ، تجميع لشذرات وأجزاء يمكن العثور عليها في إنسانية مشوهة وفي طبيعة مشوهة . وقد غدت هذه المادة المستعادة حكراً للخيال ، كما غدت المجتمعات القمعية تباركها تحت ملامح الفن و « الحقيقة الشعرية » ، حقيقة محض « شعرية » ، أي غير ذات قيمة تذكر لتحويل المجتمع عينياً . ومن الممكن كل الامكان اطلاق اسم « صور فطرية » على الصور المذكورة ، وذلك بمقدار ما لا تكون ثمرة التجربة المباشرة المعتادة للمجتمعات القمعية . وهي ممثلة بالأحرى من حيث أنها **أفق** التجربة الذي تبدو منه أشكال الأشياء المعطاة مباشرة كما تبدو في « نسخة سالبة » ، كنفي لإمكانياتها الملازمة لها ، لحقيقتها . لكن هذه الافكار ، بهذا المعنى ، « فطرية » لدى الانسان بصفته كائناً **تاريخياً** ؛ فهي نفسها تاريخية لأن إمكانيات التحرر هي في كل مكان وزمان إمكانيات تاريخية . ويشتمل الخيال ، **من حيث انه معرفة** ، على توتر لا حل له بين الفكرة والواقع ، بين الممكن والراهن . تلك هي **النواة المثالية** للمادية الجدلية : الحرية التي تتجاوز الأشكال المعطاة . وبهذا المعنى أيضاً ، تحمل النظرية الماركسية التركة التاريخية للمثالية الالمانية .

تصبح الحرية إذن «عقلاً ناظماً» يرشد ممارسة تغيير الواقع طبقاً لـ «فكرته»، أي لإمكانياته الذاتية: فهو يريد أن يجعل حقل الواقع حراً، شاغراً لحقيقته. وترى المادية الجدلية في الحرية تجاوزاً تاريخياً، تجريبياً، قوة تغيير اجتماعي تتجاوز ايضاً شكلها المباشر وتتخطاه إلى مجتمع اشتراكي، موجه لا نحو إنتاج متزايد بلا انقطاع، ولا نحو **السماء** أو **الفردوس**، وإنما نحو صراع لا ينى يتزايد مسالمة وبهجة مع مقاومة المجتمع والطبيعة، **تلك** المقاومة التي لا هوادة فيها. ذلكم هو المحور الفلسفي لنظرية الثورة الدائمة.

إن الحرية، من حيث أنها هذه القوة، ترسي جذورها وتوصلها في الدوافع الأولية للرجال والنساء، وتمثل الحاجة الحيوية إلى تمجيد غرائزهم الحياتية وتعظيمها. وشرطها اللازم الذي لا غنى عنه هو قدرة الحواس على أن تحس وتشعر لا بالصفات المعطاة للأشياء فحسب، بل أيضاً بصفاتها «الخفية» الدافعة باتجاه تحسين الحياة. وحين نعيد تحديد الحساسية بصورة جذرية بأن نجعلها «عملية»، نكون قد جردنا فكرة الحرية من تصعيدها وتساميها من دون أن ننزع عنها مضمونها التجاوزي: فليست الحواس مجرد نقطة انطلاق لإنشاء الواقع **من وجهة النظر العلومية**، بل هي أيضاً نقطة انطلاق **تحويله**، نقطة انطلاق **هدمه وقلبه** لصالح التحرر.

هكذا توصل الحرية الانسانية جذورها في **الحساسية** الانسانية: فلا تكتفي الحواس بأن «تتلقى» بما يقدم لها في الشكل الذي يقدم به إليها، ولا «تفوض» قوة أو ملكة أخرى (العقل) بتحويل المعطى، بل تكتشف على العكس بنفسها أو **يسعها** أن تكتشف بنفسها، في ممارستها، امكانيات وقدرات وأشكالاً وصفات جديدة واكثر إمتاعاً للاشياء، كما يسعها أن تطالب بتحقيقها وأن توجهه وترشده. وسوف يجعل تحرر الحواس من الواقع ما ليس هو كائناً عليه بعد: حاجة حواسية، موضوعاً لغرائز الحياة (إيروس).

إن الحساسية الانسانية **مثلمة، مغلولة**، في مجتمع قائم على أساس العمل

المستلب ؛ فلا يدرك الانسان الاشياء إلا من خلال الأشكال والوظائف التي يقدمها بها المجتمع القائم ويمثلها ويصنعها ويستخدمها ؛ ولا يدرك من امكانيات للتبدل سوى تلك التي يحددها المجتمع القائم ويجعلها وقفاً على مقاصده ومآربه[1] . وهذا ، بحيث تتم **إعادة** إنتاج المجتمع القائم لا في الفكر فحسب ، لا في وعي البشر فحسب ، بل أيضاً **في حواسهم** . ومهما حاولنا أن نقنع أو ننظّر أو نحاكم ونماحك ، فسيكون من المستحيل علينا اقتحام ذلك السجن مادامت **حساسية** الأفراد المتحجرة لم « تنحل » أو « تذب » بعد ، ولم « تنفتح » بعد **لبعد جديد من أبعاد التاريخ** ، وما دامت الألفة الاضطهادية مع عالم الاشياء المعطى لم يوضع لها حد بعد ، لم يوضع لها حد عن طريق **انسلاب ثان** ، الانسلاب من المجتمع المستلب .

تناضل الحساسية اليوم ، في معترك التمرد على « مجتمع الاستهلاك » ، في سبيل أن تصبح ممارسة ، ناقلة لإعادة بناء جذري ، لأنماط حياتية جديدة . وقد جعلت من نفسها قوة للنضال **السياسي** في سبيل التحرر[2] . وهذا يعني أن التحرر الفردي للحواس يفترض فيه ان يكون نقطة انطلاق ، بل أساساً للتحرر **العام** الشامل ، وأن المجتمع الحر يجب أن يتغذى بحاجات غريزية جديدة . فكيف يكون هذا ممكناً ؟ كيف يمكن لـ « الانسانية » ، للتضامن الانساني بوصفه **عموميةو شمولية عينية** (لا كقيمة مجردة) ، بوصفه قوة واقعية ، ممارسة ، أن ينبثق من الحساسية الفردية؟ كيف يمكن للحرية الموضوعية أن تعثر على أصلها ومنشأها في ملكات الانسان الاكثر ذاتية ؟

نحن نواجه هنا **جدل** العام والخاص : فكيف يمكن للحساسية الإنسانية ، التي هي المبدأ الفردي ، أن تولّد أيضاً **مبدأ تعميم وتشميل** ؟

هنا أعود إلى التناول الفلسفي لهذه المشكلة في المثالية الألمانية التي فيها

---

(١) انظر بهذا الصدد كتابي « نحو التحرر » ، (الترجمة العربية صادرة عن دار الآداب) .

(٢) ان مواجهة قوات الامن لحركة « انصار الحدائق » في بركلي بالقوة الوحشية تبين كيف تنفجر الحساسية في عمل سياسي .

يكمن الاصل الفكري لوجهة النظر الماركسية . إن الحس العام (أصفى اشكال الحدس) هو الذي يمثل ، في نظر كانط ، الاطار الوحيد والوحدوي للتجربة الحسية ، وهذا ما يؤكد ويعزز مقولات العقل العامة . أما في نظر هيغل ، فإن التأمل في مضمون وكيفية يقيني الحسي المباشر يميط اللثام عن « النحن » في « انا » الحدس والإدراك . وحين يدرك الوعي ، غير المتأمل فيه بعد ، النقطة التي يغدو فيها واعياً لنفسه ولعلاقته بالمواضيع ، النقطة التي يحس فيها بحضور عالم « عبر حسي » « تحت » الظاهر المحسوس للاشياء ، يكتشف أننا نحن أنفسنا كائنون تحت قناع الظاهر . وهذه « النحن » تنبسط وتنتشر كواقع اجتماعي في النضال في سبيل « الاعتراف المتبادل » بين السيد والعبد .

هذه هي النقطة الاساسية في الطريق الذي يبدأ من المجهود الكانطي للتوفيق بين الانسان والطبيعة ، بين العام والخاص ، لينتهي عند حل ماركس المادي ؛ و « فينومينولوجيـــا » هيغل تتمرد على تصور كانط العلائي : فالتاريخ والمجتمع يدخلان في نظرية المعرفة (وفي بنيتها بالذات) ويكسحان « نقاء » المسلمة القبلية ؛ وبذلك تشرع فكرة الحرية بالتجسد مادياً . لكن دراسة متأنية اكثر تبين أن الميل نفسه كان ماثلاً اصلاً في فلسفة كانط ، وأن من الممكن اكتشافه في التطور من « النقد » الاول إلى الثالث :

١ ــ ففي « النقد » الاول ، لا تتجلى حرية الذات إلا في التركيبات العلومية للمعطيات الحواسية ؛ فالحرية تتاخم التركيبات المحضة للأنا العلائي ، وهي في جوهرها قوة سبق التجربة الذي بفضله تكوّن الذات العلائية عالم التجربة الموضوعي ؛ وهكذا تكون المعرفة نظرية .

٢ ــ في « النقد الثاني » ، تسمح السيادة الذاتية المشترطة للشخص المعنوي ببلوغ ميدان الممارسة ، على اعتبار أن تلك السيادة الذاتية هي القدرة على إنتاج سببية عامة تحكم الطبيعة : اعني بها الضرورة . أما ثمنها فهو خضوع

الحساسية لآمر العقل المطلق . وتبقى العلاقة بين الحرية الانسانية والضرورة غامضة .

٣ ــ في « النقد » الثالث ، يلتقي الانسان والطبيعة بواسطة البعد الجمالي ، وتتناقص « الغيرية » الصلبة للطبيعة وتتضاءل ، ويظهر الجمال « رمزاً للاخلاقية » . واتحاد ميدان الحرية وميدان الضرورة غير مصور هنا على أنه سيطرة على الطبيعة ، على أنه تطويع لهذه الأخيرة للمقاصد الانسانية ، بل ينسب إليه على العكس غائية مثالية « خاصة به دون غيره ، غائية بلا غاية » .

لكن التصور الماركسي هو وحده الذي يبرز إلى حيز الوجود ، في الوقت نفسه الذي يحافظ فيه على المركب النقدي ، التجاوزي ، للمثالية ، الارضية المادية ، التاريخية الخاصة بتصالح الحرية الانسانية والضرورة الطبيعية ، الحرية الذاتية والحرية الموضوعية . هذا التصاهر يفترض التحرر ، يفترض الممارسة الثورية الرامية إلى تصفية مؤسسات الرأسمالية وإلى استبدالها بمؤسسات وعلاقات اشتراكية . لكن تحرر الحواس مطالب ، خلال مرحلة الانتقال هذه ، بأن يرافق ويواكب تحرر الوعي ، وبذلك يلتئم شمل **كلية** الوجود الانساني . وإذا كان الافراد يريدون أن يشيدوا متشاركين مجتمعاً مغايراً **كيفياً ونوعياً** ، فإن عليهم هم أنفسهم أن يغيروا غرائزهم وحساسيتهم . لكن لم تتلبس الحاجات **الجمالية** مثل هذه الاهمية في إعادة البناء تلك ؟

(٤)

ليس عرضاً ولا من قبيل الغزارة والإفاضة أن يكون ماركس قد رأى في تكوين العالم ــ الموضوع « طبقاً لقوانين الجمال » سمة من سمات النشاط الانساني الحر . إن السمات الجمالية هي في جوهرها سمات غير عنيفة ، غير تسلطية (سأعود إلى ذلك في القسم الثالث من هذا الكتاب) . وإنما في مضمار الفنون فحسب ، وفي الاستخدام القمعي لمصطلح « الجمالية » المميز

لـ « ثقافة عليا » مصعّدة ، تكون تلك السمات غريبة ، اجنبية بالنسبة إلى الواقع الاجتماعي و « الممارسة » . وسوف تتغلب الثورة ، إذا ما كتب لها النجاح ، على ذلك القمع ، وسوف تسترجع الحاجات الجمالية بصفتها قوة هدامة ، قادرة على معاكسة العدوانية العامة التي جبلت بجبلتها العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي على حد سواء . إن المقدرة على « التلقي » ، على « التأثر » ، على « الانفعال » ، شرط مسبق للحرية : القدرة على رؤية الأشياء من وجهة نظر الاشياء ، وعلى التحسس بما تنطوي عليه من فرح ، وبطاقة الطبيعة الايروسية ، وهي الطاقة التي لا تتطلب سوى أن تتحرر ؛ فالطبيعة تنتظر الثورة هي الأخرى ! وذلك التلقي وذلك التأثر أرض مناسبة أصلاً للخلق والإبداع ، ولا يتعارضان مع الانتاجية ، ولكن فقط مع الإنتاجية **المدمرة** .

لقد أمست هذه الإنتاجية المدمرة واحدة من السمات التي لا تني تزداد بروزاً للسيطرة المذكرة ؛ وبقدر ما كان « المبدأ المذكر » القوة العقلية والجسدية التي تفرض مشيئتها وارادتها ، فإن المجتمع الحر سيكون بالمقابل « متعارضاً مطلق التعارض » مع ذلك المبدأ ، أي سيكون **مؤنثاً** . وهذا أمر لا صلة له البتة بأي نظام أمومي مزعوم ؛ فصورة المرأة كأم صورة قمعية في حد ذاتها ، إذ انها تحول واقعة بيولوجية إلى قيمة خلقية وثقافية ، وبذلك تحمل وتبرر القمع الاجتماعي . والحال أن موضوع الرهان هو ، على العكس ، سطوة الإيروس على العدوان لدى الرجال ولدى النساء **معاً** ، وهذا معناه في مجتمع يهيمن عليه الذكر « تأنيث » الرجل . والمقصود بذلك أن يطرأ تبدل حاسم على البنية الغريزية ، فتضعف قوة العدوانية البدائية التي تحكمت بالثقافة الرعوية عن طريق الجمع بين عوامل بيولوجية واجتماعية .

ومن منظور هذا التحول تغدو حركة تحرر المرأة قوة جذرية ، وذلك بمقدار ما تتخطى وتتجاوز بكل ما في الكلمة من معنى دائرة الحاجات والنشاطات

القمعية ، ومجمل التنظيم الاجتماعي وتوزيعه للأدوار . وبعبارة أخرى ، تغدو تلك الحركة جذرية بقدر ما تستهدف لا المساواة في الاستخدام وبنية قيم المجتمع القائم — فمثل هذه المساواة لن تعدو أن تكون تساوياً في اللاانسانية — وإنما ايضاً ، وبوجه خاص ، بقدر ما تستهدف تبديل البنية بالذات ، هذا التبديل الذي لا تعدو أن تكون المطالب الاساسية بصدد المساواة في الفرص وتكافئها ، والمساواة في الأجر ، والتحرر من المهام المنزلية ومن رعاية النسل ، شرطاً مسبقاً ضرورياً له . اما في داخل البنية القائمة ، فلا الرجال ولا النساء احرار ، ولا إنسانية الرجال قد تكون أدهى وأنكى من لا إنسانية النساء ، وذلك لأن الرجال ليسوا محض ضحايا للعمل المتسلسل ولوتائره ، بل هم أيضاً نماذج لـ « أخلاقية عالم الأعمال » .

ومع ذلك ، سيكون تحرر المرأة انقلاباً أعظم أهمية حتى من ذاك المتمثل في تحرر الرجال ، وهذا لأن الاستعمال الاجتماعي لتكوين المرأة الجسماني قد عزز على الدوام من اضطهادها وقمعها . فان تحمل المرأة الأولاد وان تكون اماً ، فهذا لا يفترض فيه أنه الوظيفة الطبيعية للنساء فحسب ، بل يفترض أيضاً أنه تفتح « طبيعتهن » — مثله في ذلك مثل وضعها كزوجة أو مثل التناسل الذي يتم في إطار الأسرة الاحادية الرعوية . أما خارج هذا الإطار فلا تزال المرأة في الجوهر والاساس اداة أو متنفساً مؤقتاً للطاقة الجنسية غير المستنفدة في الزواج .

ترى النظرية الماركسية في الاستغلال الجنسي الاستغلال الأول ، الأصلي ، وتكافح حركة تحرر المرأة انحطاط المرأة إلى « موضوع جنسي » . لكن هناك شيء من الصعوبة في التغلب على الانطباع بأن بعض المظاهر والجوانب القمعية المميزة للتنظيم الرأسمالي — البورجوازي للمجتمع تنقلب هنا على هذا التنظيم وتساهم في الإغارة عليه . فمن وجهة النظر التاريخية تقرض صورة المرأة بصفتها موضوعاً جنسياً وقيمة تبادلية في السوق وتحثُّ الصور القديمة القمعية للمرأة بصفتها أماً وزوجة . فقد كانت هـــذه الصور صوراً أساسية في

الايديولوجيا البورجوازية خلال مرحلة تطورها التي تم تجاوزها الآن ، المرحلة التي كان فيها شيء من « التنسك الداخلي » ما يزال يفعل فعله في صالح الدينامية الاقتصادية. وبالمقابل، فإن الصورة الراهنة للمرأة ــ الموضوع ــ الجنسي هي **تسفيل** للاخلاق البورجوازية في مرحلة اكثر تقدماً من التطور الرأسمالي . ففي تلك الصورة ترتسم ، مرة اخرى ، معالم الوجه التجاري الذي يعم وينتشر ويغزو اليوم ميادين كانت في الأمس محرمة ومحمية . فالجسد (الانثوي) ، كما تظهره « بلاي بوي [1] » من خلال إشادتها بلدونته التشكيلية وإضفائها عليها طابعاً مثالياً ، يغدو بضاعة عليها طلب شديد ، وقيمتها التبادلية كبيرة . أهو انحلال الأخلاق البورجوازية ؟ ربما ، لكن من المستفيد من ذلك؟ والشيء المؤكد أن هذه الصورة الجديدة للجسد تزيد من حجم المبيعات ، وليس من المهم ألا يكون الجمال التشكيلي هو الجوهري والأساسي فيها ، فهي تحفز وتستثير حاجات جمالية ــ حواسية ــ تصبح بالضرورة متنافية ، فيما اذا ارادت توكيد ذاتها ، مع الجسم كأداة للعمل المستلب . كذلك يجعل الجسم المذكر دعامة وركيزة لخلق صورة جنسية ، صورة هي بدورها تشكيلية ومزالة رائحتها (فالقيمة التبادلية لا رائحة لها) . ترى هل سيصبح « تشريك » الجسم باعتباره موضوعاً جنسياً ، بعد دنيوة الدين وبعد تحول الأخلاق إلى نفاق أورويلي ، هل سيصبح بدوره واحدة من آخر آخر الخطوات الحاسمة المفضية إلى التفتح الكامل للمجتمع التبادلي . إلى ذلك التفتح الذي هو بداية النهاية ؟

وعلى كل حال ، يبقى الاعلان عن طريق الجسد ــ الموضوع (الجسد الأنثوي في الوقت الراهن) عملاً من أعمال التجريد من الصفة الانسانية ، ولا سيما أنه يتملق لدى الذكر المسيطر الذات العدوانية التي لا ترى في الأنثى إلا امتلاكها وجماعها . وإنه لمن طبيعة العلاقات الجنسية أن يكون كل من

---

(١) كبرى مجلات الجنس « الفني » في اميركا .

الذكر والانثى موضوعاً وذاتاً في آن واحد ؛ والطاقة الايروسية العدوانية تنحل وتذوب في الزوجين . صحيح أن فائض العدوانية المذكرة محدد اجتماعياً ، وكذلك فائض السلبية المؤنثة ، لكن ثمة تضاداً **طبيعياً** يكمن تحت العوامل الاجتماعية للعدوانية المذكرة والاستقبالية المؤنثة : فالمرأة هي التي **تجسد** ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، الوعد بالسلام والفرح ونهاية العنف . لقد اصبح الحنان والتلقي والحواسية سمات (أو سمات شوهاء) لجسدها ، سمات لإنسانيتها (المقموعة) . ومن المحتمل الى ابعد حدود الاحتمال أن يكون تطور الرأسمالية هو الذي يحدد اجتماعياً تلك السمات الانثوية . فالسيرورة سيرورة جدلية حقاً[1] . وحتى لو أدى اختزال الملكات الفردية العينية إلى قوة عمل مجردة إلى قيام مساواة مجردة بين الرجال والنساء (المساواة امام الآلة) ، فإن هذا الجفاف واليباس لم يبلغ كامل مداه في حالة النساء . فقد جرى استخدامهن على نطاق اضيق من استخدام الرجال في عملية الانتاج المادية . لقد استخدمت النساء ملء الاستخدام في المنزل ، والأسرة ، والدائرة التي يفترض أن يحقق الفرد البورجوازي فيها نفسه . ولئن كان هذا الإطار ، المعزول عن العملية الانتاجية ، قد ساهم في تشويه المرأة وبترها ، فإن ما يعزلها أو يفصلها عن العالم المستلب للعمل في ظل النظام الرأسمالي قد أتاح لها أن تكون أقل تبلداً بمبدأ المردود ، وأن تظل أقرب إلى حساسيتها ، اي اكثر انسانية من الرجل . ولئن كان مجتمع قمعي ، يتسلط عليه الذكر ، هو الذي حدد صورة المرأة تلك وواقعها هذا ، فليس ذلك بسبب كاف لا لرفض الظاهرة ولا لضرورة خنق تحرر المرأة لـ « الطبيعة » الأنثوية . فلو حدث ذلك لحدث تراجع في المساواة بين المرأة والرجل ، ولما كانت المساواة في هذه الحال سوى شكل جديد من قبول المرأة بالمبدأ المذكر . ومرة أخرى نقول ان السيرورة التاريخية سيرورة جدلية : فقد خلق المجتمع الرعوي

---

(١) هذا الجدل هو فحوى مقالة انجيلا ديفيس « الماركسية وتحرر النساء » . وقد كتبت هذه المقالة في السجن ، فحملت بصمات امرأة ومناضلة ومثقفة من طراز رفيع .

صيرورة للمرأة ، قوة مضادة مؤنثة، قد تكون لها المقدرة على أن تغدو واحداً من حفاري قبر المجتمع الرعوي . وإنما بهذا المعنى أيضاً تحمل المرأة وعد التحرر . إنها امرأة التي تشهر، في لوحة ديلاكروا، راية الثورة وتقود الشعب عن المتاريس . وهي لا ترتدي البزة النظامية ، بل نراها عارية الصدر ، وليس على وجهها الجميل أثر من العنف . بيد أنها تمسك ببندقية ، وذلك لأن نهاية العنف ما تزال معركة يجب ان تخاض ..

(٤)

الفن والثورة

« إن بعض مراحل النمو العظيم في الفن لا ترتبط بصلة مباشرة لا بالتطور العام للمجتمع ، ولا بالقاعدة المادية لتنظيمه وبنيته » .

كارل ماركس

(١)

الثورة الثقافية : إن هذا التعبير ، بمدلوله الغربي ، يوحي أولاً بأن بعض التطورات الايديولوجية متقدمة على تطورات **قاعدة** المجتمع ؛ وبعبارة اخرى، يوحي بأنه من الممكن أن تقوم ثورة ثقافية **من دون** ان تكون قد قامت بعد ثورة سياسية واقتصادية . ففي حين طرأت على الفنون، على الادب والموسيقى، على الاتصال ، على الأعراف والأخلاق والموضات ، تغيرات تنم عن طريقة جديدة في الإحساس وعن تحول جذري في القيم ، تبقى البنية الاجتماعية وترجمتها السياسية بلا تبدل في الجوهر ، أو متأخرتين على الأقل عن التغيرات الثقافية . بيد أن « الثورة الثقافية » توحي ايضاً بفكرة أن المعارضة الجذرية تشمل بمعنى جديد كل ما يتجاوز مضمار الحاجات المادية — أو تستهدف بالاحرى تحويلاً شاملاً لمجمل الثقافة التقليدية .

لئن كانت هذه النزعة الجذرية تشدد اللهجة على الطاقة السياسية للفنون، فهذا قبل كل شيء لأن هذه النزعة تعرب عن حاجتها إلى أن تبلغ الآخرين بصورة فعالة اتهامها للواقع القائم واهدافها في التحرر . وهذا المجهود الذي تبذله إنما تبذله بهدف إيجاد أشكال من الإبلاغ والاتصال قادرة على التصدي للهيمنة القمعية على روح الانسان وجسده وعلى اللغة والصور القائمة — لغة وصور أضحت منذ أمد طويل وسائل للسيطرة والخداع وغسل الأدمغة . إن إبلاغ الأهداف التاريخية الجديدة للثورة ، هذه الاهداف البعيدة كل البعد عن الامتثالية ، يتطلب لغة (بأوسع معاني الكلمة) لا امتثالية هي الأخرى ؛

ولا بد أن تصل هذه اللغة إلى سكان تملكوا لحسابهم الخاص وحقنوا انفسهم بحاجات سادتهم والمتحكمين بهم وبقيمهم ، فباتوا يعيدون انتاج **النظام** القائم في نفوسهم ووعيهم وحواسهم وغرائزهم . وإذا كانت مثل هذه اللغة تريد أن تكون سياسية ، فلا خيار لها في أن « تخترع » نفسها بنفسها ، بل ستركز بالضرورة على استعمال هدام للمادة التقليدية ، والبحث عن امكانيات الهدم هذه إنما يتم عادة في الجانب الذي سمحت فيه التقاليد نفسها وباركت وصانت لغة أخرى وصوراً أخرى . ولغات « أخرى » من هذا القبيل إنما تتوفر بصورة رئيسية في ميدانين اثنين يقعان في قطبين متعارضين من المجتمع :

— في الفنون (الفنون التشكيلية ، الادب الموسيقى ..)

— في التقاليد الشعبية (اللغة الزنجية ، العامية ...)

والميدان الثاني هذا هو إلى حد كبير ميدان الكائنات التي ترزح تحت ادهى أشكال الاضطهاد ، ولهذا فإنه على صلة قربى طبيعية بالاحتجاج والرفض . فاللغة الزنجية ، التي يشجع السود المعاصرون بعضهم بعضاً على النطق بها ، تعزز تضامنهم ، كما تعزز وعيهم لهويتهم وتقاليدهم الثقافية المقموعة والمزورة . وهذه اللغة تتعارض ، بحكم وظيفتها ، مع استخدام معمم . ويكمن الشكل الآخر من التمرد اللغوي في الاستخدام المنهجي (« البذاءات » . وكنت قد ألمحت ، في « نحو التحرر » ، على الطاقة السياسية المحتملة لهذا الشكل . أما اليوم فقد طوته يد النسيان وأُسقط من الاعتبار . فمثل هذه اللغة ، الموجهة إلى **نظام** يسعه بكل يسر أن يتحمل نفقات ترف « البذاءة » ، لم تعد سمة موقوفة على المذهب الجذري وعلى من لا ينتمي إلى النظام . أضف إلى ذلك أن البذاءة المفتقرة إلى الأصالة تمثل تسفيلاً قمعياً ، تلبية سهلة (وأن مفوضة) للعدوانية . وما أسهل أن تنقلب على الطاقة الجنسية بالذات . فإغراق المجال التناسلي والشرجي في بحر من اللفظية ، على نحو ما اعتاد اليسار الجذري أن يفعل ، والاستخدام « الإلزامي » لكلمات بعينها كـ « النيك » و « المني » ، و « الخراء » **يحطان من منزلة** الجنس والطاقة الجنسية . وحين يقول احد

ممثل للنظام الاضطهادي ، وحين يصف منتجات العدو بأنها « خراء » فإنه يتبنى لحسابه الرفض البورجوازي للايروسية الشرجية . فلكأن الجذري بحطه هذا — اللاواعي احياناً — من قيمة الجنس والنشاط الجنسي يعاقب نفسه بنفسه على عجزه وعنّته؛ هكذا تتفرغ لغته من قوتها الصدامية السياسية . وهذا التمرد اللغوي ، الذي هو بمثابة اختبار لتعيين الهوية ، والذي يسمح للامتثاليين الجذريين بالتملق والمداهنة ، يطعن في هويتهم السياسية إذ يصادق لفظياً على المحرمات (التابوات) البورجوازية الصغيرة[1] .

وفي القطب الآخر من المجتمع ، في ميدان الفنون ، ما تزال تقاليد الاحتجاج ورفض « المعطى » مستمرة على ما هي عليه وبقوة اندفاعها . وفي هذا الميدان ما تزال اللغة الأخرى والصور الأخرى تعبر جسر الاتصال ، واهبة ذاتها لمن يسمعها ويراها . وهذا الفن على وجه التحديد هو الذي يستخدم الآن ، في شكل هدام ، كسلاح في النضال السياسي ضد المجتمع القائم ، وصداه ورجعه يتجاوزان من بعيد هذه الفئة أو تلك من الفئات التي لها امتيازاتها ، أو على الاقل امتيازاتها الثانوية . ويرمي الاستخدام الهدام للتقاليد الفنية دفعة واحدة وعلى الفور إلى تسفيل منهجي للثقافة ، أي إلى تقويض الشكل الجمالي وهدمه . وما الشكل الجمالي إلا جملة السمات (الانسجام ، الايقاع ، التضاد ، الخ) التي تجعل من عمل من الاعمال الفنية كلاً كافياً نفسه بنفسه ، محبواً ببنية وتناسق خاصين (الأسلوب) . وبفضل هذه السمات يحول العمل الفني النظام الموجه للواقع . وهذا التحويل « وهم » لكنه وهم يقلد المضمون الممثل معنى ووظيفة مغايرين للمعنى والوظيفة اللذين له في عالم الإنشاء والخطاب المعتاد . فالكلمات والاصوات والصور ، المنتمية إلى بعد آخر ، تضع « بين مزدوجين » الواقع القائم وتلغي حقوقه لصالح توفيق ما يزال في عالم الغيب .

---

(١) راجع في هذا الموضوع « نحو التحرر » .

لقد كان الوهم التنسيقي ، والتجميل المثالي ، وفي الوقت نفسه الطلاق بين الفنون والواقع ، تسم بميسمها الشكل الجمالي . وتسفيل هذا الشكل يعني العودة إلى فن « مباشر » يجعل من نفسه لا صدى العقل وحساسية مشذبة ، « مقطرة » ، مقيدة ، فحسب ، بل أيضاً وقبل كل شيء صدى تجربة حسية « طبيعية » ، متحررة من متطلبات مجتمع استغلالي اكل الدهر عليه وشرب . وما يجري البحث عنه الآن انما هي الاشكال الفنية التي تعبر عن تجربة الجسد و « الروح » لا بوصفهما أداتين لا حول لهما ، خانعتين ، من أدوات قوة العمل ، وإنما بوصفهما ناقلين للتحرر . إنه البحث عن **ثقافة حماسية** ، « حواسية » بقدر ما تتضمن التحويل الجذري للتجربة الحسية وقابلية التأثر الانسانيتين ، وتحرر الإنسان تجاه إنتاجية ترعى نفسها بنفسها ، مشوهة وموجهة نحو السعي وراء الربح . لكن الثورة الثقافية تتجاوز من بعيد مجرد إعادة تثمين القيم الفنية ، وتتصدي لجذور الرأسمالية في الأفراد أنفسهم .

لقد اردت في الفصل السابق أن اعطي فكرة عن القوة المادية ، العملية لهذا التحرر . ذلك أنه لم يعد في الامكان تأويل التغيرات الثقافية وتفسيرها على وجهها الصحيح في حال البقاء ضمن إطار المخطط المجرد : القاعدة — البنية الفوقية (الايديولوجيا) . فانحلال «الثقافة البورجوازية في المرحلة الراهنة يصيب فيما يصيب القيم **العملياتية** للرأسمالية . إن ثمة ادراكاً جديداً للواقع وقيماً جديدة تخفف من غلواء امتثالية السكان . إن ذلك الاحتجاج « الوجودي » ، الذي تصعب الاحاطة به ومعاقبته ، يهدد تلاحم النظام الاجتماعي بفعالية اكبر من تلك التي تهدده بها الاهداف والشعارات السياسية . وهذا الاحتجاج هو المحرك أيضاً للجهود المبذولة في سبيل تقويض ثقافة **النظام** « العليا » ؛ فالنضال في سبيل طرز حياتية مختلفة جوهرياً يستند اليوم على ما يبدو ، إلى حد بعيد ، على الانعتاق من سطوة « الثقافية البورجوازية » .

إن القطيعة مع التقاليد الفنية البورجوازية ، « الرصينة » منها والشعبية على

حد سواء ، تبدو اليوم شبه تامة . والاشكال الجديدة ، « المفتوحة » أو « المنعتقة » ، لا تبرز للعيان اسلوباً جديداً في التعاقب التاريخي فحسب ، بل هي بالأحرى نفي للعالم ذاته الذي كان فيه الفن ينمو ويتطور ، وهي بالتالي جهود لتغيير وظيفة الفن التاريخية . فهل هذه الجهود هي فعلاً خطوات إلى الأمام نحو التحرر ؟ وهل تقوض ما يفترض فيها أن تقوضه ؟ قبل أن نحاول الجواب على هذه الاسئلة ، لنسلط الضوء على الهدف والمرمى .

الثقافة البورجوازية : هل يوجد قاسم مشترك دال (غير القاسم المشترك المبهم واللاتاريخي) للثقافة السائدة بين القرن السادس عشر والقرن العشرين برمتها ؟ إن **البورجوازية** هي العامل التاريخي لهذه الثقافة : في البداية الطبقة المتوسطة المدينية الواقعة بين النبلاء وعمال الحقول والمعامل ، وبعد ذلك الطبقة الحاكمة في مواجهة طبقة القرن التاسع عشر العاملة الصناعية . **لكن** البورجوازية ، التي تمثلها (ظاهراً وتخميناً) ثقافة تلك المرحلة ، **لم تعد** ، فيما يتعلق بوظيفتها الاجتماعية وروحها ، الطبقة الحاكمة اليوم ، كما لم تعد ثقافتها الثقافة السائدة في المجتمع الرأسمالي المتقدم ، سواء أكان قصدنا الثقافة **المادية** أم الثقافة **الفكرية** الفنية « العليا » .

لنعد إلى الأذهان الفارق بين هاتين الدائرتين الثقافيتين :

ـ تشمل الثقافة المادية أنماط السلوك المعبر عنها بصورة فعلية (« كسب الرزق » ، ونظام القيم **العملياتية** ، ومبدأ المردود ، والأسرة الرعوية من حيث أنها تربوية ، والعمل من حيث أنه نداء او دعوة) .

ـ تشمل الثقافة الفكرية « القيم العليا » ، والعلم ، والآداب القديمة ، والفنون ، والدين .

وسوف نرى أن بعديْ الثقافة البورجوازية هذين لا يؤلفان جملة واحدة ، بل تطوراً على العكس من خلال توتر ، بل تناقض ، فيما بينهما .

ومن الخصائص البورجوازية الخالصة في الثقافة **المادية** :

ـ شاغل المال ، والاعمال ، و « التجارة » بصفتها قيمة « وجودية » يباركها الدين والاخلاق .

ـ دور الأب الاقتصادي و « الروحي » السائد بصفته زعيم الأسرة والمنشأة .

ـ تربية تسلطية لإعادة انتاج هذه الاهداف النفعية واستبطانها .

لقد كان « اسلوب حياة » المادية البورجوازية هذا كله متسربلاً بعقلانية أداتية تناهض الميول الحرة ، وتحط من منزلة الجنس ، وتعامل النساء على اساس من التفرقة ، وتفرض قمعها باسم الله والاعمال التجارية .

في الوقت ذاته ، ما كانت **الثقافة الفكرية** تعزو أي قيمة للثقافة المادية ، بل كانت تنكرها ، فقد كانت مثالية إلى حد كبير ، وكانت تصعّد القوى القمعية بربطها على نحو وثيق العرى بين التحقق والإنكار ، بين الحريـــة والخنوع ، بين الجمال والوهم .

والحال أنه من الظاهر للعيان مع ذلك أن عهد هذه الثقافة قد ولى . فليس للطبقة الحاكمة اليوم ثقافة خاصة بها (بحيث تغدو افكار الطبقة الحاكمة هي الافكار الحاكمة) ، كما أنها لم تعد تمارس الثقافة البورجوازية التي ورثتها . لقد اكل الدهر وشرب على الثقافة البورجوازية الكلاسيكية ، وهي في سبيلها إلى الانحلال والاضمحلال لا تحت تأثير الثروة الثقافية والتمرد الطالبي ، وإنما بالأحرى بفعل دينامية رأسمالية الاحتكارات التي جعلتها متنافية ومتطلبات البقاء والنمو الرأسماليين .

وسأستعرض باقتضاب أعم مؤشرات **انحلال** الثقافة البورجوازية :

ـ تقويض « التنسك الداخلي » ، وهو عقلية كلاسيكية للرأسمالية ، عن طريق « الثورة الكينزية » ، وهي شرط تراكم متعاظم للرأسمال .

ـ الطبقة الحاكمة مرتبطة مصيرياً بإعادة إنتاج المجتمع الاستهلاكي التي

تدخل في تناقض متنامٍ مع الإدامة الرأسمالية للعمل المستلب .

ـ بالتوافق مع الحاجة الاجتماعية إلى دمج مكثف للمسالك داخل المدار الرأسمالي ، سقوط حظوة التصورات المثالية النزعة ، والتربية الوضعية ، وظهور مناهج علمية « بحتة » في العلوم الاجتماعية والآداب القديمة .

ـ استعادة الثقافات الفرعية الحرة التي تستطيع أن تطور سوق السلع وان تنميها .

ـ تدمير عالم اللغة ، وإنزال أورويلية مشتطة منزلة نمط عادي ، سوي ، للاتصال (انظر آخر الفقرة الخامسة من هذا الفصل) .

ـ أخيراً أفول صورة الأب والأنا الاعلى في الأسرة البورجوازية[1] .

وحين تبقى الطبقة الحاكمة اليوم ، من باب المصادفة ، على تعلقها بالقيم الثقافية التقليدية ، فإنها تفعل ذلك بنفس الكلبية الطقسية التي تجعل هذا العضو من أعضائها أو ذاك يتكلم عن الدفاع عن العالم الحر ، وعن المشروع الخاص ، وعن حقوق الانسان والفردية . لمَ نسمي هذا كلبية ؟ لأنه لا يسع أي ايديولوجيا ان تزعم ، ولو للحظة واحدة ، أنها قادرة على إخفاء الحقيقة الواقعة التالية وهي أن الطبقة الحاكمة توقفت عن تطوير القوى المنتجة المحتواة في موسساتها لتعمل على العكس ، على كبتها وعرقلتها . إن الايديولوجيا تهرب من البنية الفوقيـــة (حيث يحل محلها نظام صارخ من الاكاذيب والبلاهات) لتتحد وتندمج بسلع المجتمع الاستهلاكي وخدماته ؛ فهذه السلع والخدمات هي التي تغذي وعي الرفاهية الكاذب .

عندئذ ينطرح السؤال التالي : إذا كنا نشهد اليوم انحلال الثقافة البورجوازية بفعل الدينامية الداخلية للرأسمالية ، وتكيف الثقافة مع مقتضيات هذه الرأسمالية ومتطلباتها ، أفلن تسير الثورة الثقافية ، بمقدار ما ترمي إلى تدمير

---

(١) راجع « الحب والحضارة » (صادر بالعربية عن دار الآداب) . وكذلك هنري وييلا لونفيلد : « مجتمعنا المتسامح وألانا الاعلى » في « المجلة النفسية التحليلية الفصلية » ، تشرين الاول ١٩٧٠ .

الثقافة البورجوازية ، في ركب تكييف الثقافة وإعادة تحديدها من قبل الرأسمالية ؟ ألا تقضي بنفسها على هدفها الخاص : تمهيد الطريق امام ثقافة معادية للرأسمالية جذرياً ومختلفة نوعياً ؟ أليس هناك تنافر خطر ، بل تناقض بين الاهداف السياسية للتمرد من جهة وبين نظريته وممارسته الثقافيتين من الجهة الثانية ؛ ثم ألا يتوجب على التمرد أن يعدل « استراتيجيته » الثقافية حتى يجد حلاً لذلك التناقض ؟

إن هذا التناقض ظاهر اكثر ما يكون الظهور في الجهود المبذولة لإشادة « لا فنّ »، « فن حي »، عن طريق نبذ الشكل الجمالي . فالمفروض في هذه الجهود أن تعمل في خدمة الهدف الاساسي على المدى الطويل : إلغاء التفرّع الثنائي إلى ثقافة مادية وإلى ثقافة فكرية ، وهو تفرع يفترض فيه أن يعبر عن الطابع الطبقي للثقافة البورجوازية ، الطابع الذي يعد جزءاً لا يتجزأ من اكمل آثار المرحلة البورجوازية واعظمها تمثيلاً لها .

لنجرِ أولاً فحصاً نقدياً مقتضباً لهذه الفكرة . إن استعراض هذه الآثار ، ابتداء من القرن التاسع عشر على كل حال ، يظهر للعيان غلبة موقف **مناهض للبورجوازية** جذرياً : فالثقافة العليا تتهم وتجرّم وتنبذ ثقافة البورجوازية المادية وتتبرأ منها . وهي بالفعل مبتورة عنها ، مقطوعة الصلة بها ؛ فهي **تفصل نفسها بنفسها** عن عالم البضائع ، عن وحشية الصناعة والتجارة البورجوازيتين ، عن تشويه طبيعة العلاقات الانسانية ، عن النزعة المادية الرأسمالية ، عن العقل الأداتي . والعالم الجمالي يخالف ويناقض الواقع : فهو نقيضه « المنهجي » ، القصدي .

صحيح أن هذا التعارض ليس فورياً ، ولا مباشراً ، ولا شاملاً ؛ كما انه لا يتلبس شكل الرواية أو القصيدة أو اللوحة الاجتماعية أو السياسية ؛ او إذا ما حدث ذلك (كما لدى بوشنر ، او زولا ، أو إبسن ، او بريشت ، او ديلاكروا ، او دومييه أو بيكاسو) فإن **الأثر** يظل وفياً لبنية الفن ،

للشكل الروائي أو الدرامى أو الرسمي ، الخ ، وهو الشكل الذي يتيح له التباعد عن الواقع . إن الشكل يخفف من وقع النفي ، فلا يعدو التناقض أن يكون تناقضاً « مثلماً » ، « مصعداً » ، يغير ويحول جوهر الواقع المعطى — والتحرر من نير هذا الواقع المعطى . وعن طريق هذا التغير والتحول يتخلف عالم منطو على ذاته ؛ ومهما كان هذا العالم واقعياً أو طبيعياً من وجهة النظر المذهبية ، فإنه يظل غير الواقع أو الطبيعة . وإنما في هذا العالم الجمالي تجد التناقضات بالفعل « حلاً » لها ، وذلك بمقدار ما تظهر داخل تناسق وتساوق عام لا تعدو في الحقيقة ان تكون جزءاً منه . وهذا الكل المتناسق المتساوق هو في الأساس عيني وتاريخي للغاية : إنه الدولة — الحاضرة الاغريقية ، أو البلاطات الاقطاعية ، او المجتمع البورجوازي . ومصير الفرد فيه (كما يصوره الأثر الفني) ليس فردياً فحسب ، وإنما أيضاً ما فوق فردي . وليس ثمة أثر فني لا يعلن عن هذه العمومية في سيماء كل فرد او أفعاله أو أوجاعه الخاصة . وليس ثمة أثر فني لا « يعلن » عن ذلك في شكل مباشر ، حسي ، اكثر مما هو « رمزي » : فالفرد يجسد العموم والشمول ؛ وبذلك يرتقي إلى مصاف بشير بحقيقة عامة ، حقيقة كالحقائق التي ينطق بها العراف من حيث مصيرها ووضعها الخاص بها .

إن الأثر الفني يحول أولاً مضموناً خاصاً ، فردياً ، إلى نظام اجتماعي عام يكون ذلك الأثر جزءاً منه — لكن هل يتوقف التحول عند هذا النظام ؟ هل تقتصر حقيقة الأثر الفني أو « صحته »أو « شرعيته » على الدولة — الحاضرة الاغريقية ، أو على المجتمع البورجوازي ، الخ ؟ بديهي أن لا . ففي قلب النظرية الجمالية ينطرح السؤال السرمدي : ما الذي يجعل المأساة الاغريقية والملحمة القروسطية محتفظتين بصحتهما وحقيقتهما إلى اليوم ، وما الذي يجعلنا قادرين لا على فهمهما فحسب بل على تذوقهما أيضاً ؟ إن علينا أن نبحث عن الجواب على مستويين مختلفين من « الموضوعية » :

— أولاً ، ان التحويل الجمالي يزيح النقاب عن الشرط الانساني من حيث

أنه ينتمي إلى كلية تاريخ (يقول ماركس) : ماقبل تاريخ الجنس البشري ، بصرف النظر عن كل وضع خاص محدد .

ـ ثانياً ، يتناظر الشكل الجمالي مع بعض الخصائص الثابتة للعقل والحساسية والمخيلة الانسانية ، وهي الخصائص التي رأت فيها التقاليد الجمالية الفلسفية فكرة الجمال[1] .

وبفضل هذا التحويل للعالم التاريخي المحدد ـ وهو التحويل الذي يحدث في تمثيل المضمون الخاص ذاته ـ تفتح الآثار الفنية في الواقع القائم بعداً آخر ، بعد التحرر الممكن . صحيح أن ذلك وهم ، ولكنه وهم يتجلى فيه واقع آخر . وليست هذه هي الحال إلا إذا **اراد الفن نفسه** وهماً ، عالماً غير واقعي هو غير العالم القائم . ومن خلال هذا التحوير على وجه التحديد يصون الفن **ويتجاوز** في آن واحد طابعه الطبقي . يتجاوزه لا باتجاه مملكة خيالية لا تعمرها غير الاوهام ، وإنما باتجاه عالم من الممكنات العينية .

سأحاول أولاً الاحاطة بالسمات النمطية للطابع الطبقي للثقافة العليا إبان المرحلة البورجوازية . فنحن نتعرف في هذه الثقافة بوجه عام اكتشاف **الذات** الفردية والإشادة بها ، اكتشاف « الشخص المستقل ذاتياً » الذي يفترض فيه أن يحقق نفسه ، أن يصبح كياناً ، أن يغدو « أنا » في العالم وضد العالم الذي يدمر الأنا . وتفتح هذه الذاتية بعداً جديداً في الواقع البورجوازي ، بعداً للحرية والتفتح ؛ بيد أننا لا نعثر على ملكوت الحرية هذا ، المصعّد على هذا النحو ، ان لم نقل المرفوع إلى مرتبة اللاواقعية ، إلا في الكائن **الداخلي** في نهاية المطاف . ففي الواقع المعطى يتدبر المرء أمره ، فإما أن ينكص ويتخلى ، وإما أن يدمر نفسه . والواقع المعطى له وجوده المستقل وحقيقته الخاصة ؛ كما أن له اخلاقه وسعادته وملذاته الخاصة (والكلام عن هذه الأخيرة يمكن

---

(١) يحلل اسطفان مورافسكي في مقاله : « القيمة الفنية » ، « مجلة التربية الجمالية » ، المجلد ٥ ، العدد ١ ، ص ٣٦ وما يليها بوجه خاص ، يحلل « وجهة النظر الموضوعية النزعة في علم الجمال » .

أن يطول ويطول !) . أما الحقيقة الأخرى فهي الموسيقى ، الأغنية ، الشعر ، الصورة ، في أعمال المعلمين : مضمار جمالي يكفي ذاته بذاته ، مملكة من التناغم الجمالي تترك الواقع البائس الزري « يهتم بترهاته » . والحال أن هذه « الحقيقة الداخلية » ، هذا الجمال السامي ، هذا العمق أو التناغم للمخيلة الجمالية ، الذي يبدو اليوم زائفاً لا يحتمل ولا يطاق لا عقلياً ولا مادياً ، هو على وجه التحديد الذي يعد عنصراً من عناصر الثقافة ــ البضاعة ، عقبة تنتصب في وجه التحرر .

يجب أن أقر بأنه يشق علي أن أحدد الطابع الطبقي النوعي للفن البورجوازي . فصحيح أن الآثار الفنية البورجوازية بضائع ، بل ربما جرى خلقها وإبداعها على أساس أنها بضائع برسم العرض في السوق ، لكن هذه الواقعة لا تكفي في حد ذاتها لتغيير جوهرها وتبديل حقيقتها . إن « حقيقة » الفن لا ترجعنا إلى التلاحم والمنطق الداخليين للأثر الفني فحسب ، بل أيضاً إلى **صوابية** المقول وصوره واصواته وايقاعاته . فهذه الاخيرة تكشف وتوصل وقائع وامكانيات للوجود الإنساني ؛ و « ترى » هذا الوجود من منظور مغاير جداً للمنظور الذي تنظر اليه منه اللغة والاتصال العاديان (والعلميان) . وبهذا المعنى يكون للأثر الأصيل ، بالفعل ، دلالة تطالب بصحة وصوابية وموضوعية عامة . وهناك ، بعد كل شيء ، أشياء كنصّ الأثر أو بنيته او إيقاعه ، لها وجودها « الموضوعي » ، وفي المستطاع العثور عليها وتعرف هويتها من حيث أنها مماثلة ومطابقة لذاتها في أو عبر أو بالرغم من كل تأويل خاص ، وكل تلقٍ او تشويه خاصين للرسالة . كما أنه لا يكفي أن يكون مبدعو تلك الآثار متحدرين من صلب بورجوازية حتى نرد موضوعيتها وصحتها العامة . ولو زعمنا ذلك نكون قد خلطنا بين المضمارين البسيكولوجي والاونطولوجي . صحيح أن بنية الفن الاونطولوجية تاريخية ، لكن التاريخ هو تاريخ الطبقات **جمعاء** . والطبقات جمعاء تتقاسم فيما بينها محيطاً متشابهاً في أعم سماته (المدينة ، الريف ، الطبيعة ، الفصول ، الخ) ، والتواجه

فيما بينها يتم داخل هذا المحيط العام الموضوعي .

أضف إلى ذلك أن الرؤية الفنية تعانق أيضاً كلية أخرى ، اوسع وأرحب ، وإلى حد ما « سلبية » . العالم « المأساوي » للوجود الانساني وبحثه المتواصل عن خلاص في هذه الدنيا ــ الأمل في التحرر . وقد سبق أن افترضت أن الفن يشير إلى هذا الأمل ويحييه ، وبحكم هذه الوظيفة يتجاوز كل مضمون طبقي خاص من دون أن ينحيه جانباً . صحيح أن للفن البورجوازي ، بالبداهة ، مضموناً طبقياً خاصاً من هذا القبيل : فالبورجوازي يحتل مع ديكوره ومشكلاته مقدمة المسرح ، مثله مثل الفارس مع ديكوره ومشكلاته في الفن القروسطي ؛ لكن هل يكفي ذلك لتعيين حقيقة الاثر الفني وتحديد مضمونه وشكله ؟ لقد أزاح هيغل النقاب عن الاستمرارية الجوهرية ، عن الحقيقة التي تربط بين الرواية الحديثة والملحمة القروسطية . قال :

« ما الطابع الروائي سوى الفروسية ، لكن محمولة هذه المرة على محمل الجد ، وصائرة إلى مضمون واقعي . لقد تحولت الحياة الخارجية ، التي كانت خاضعة حتى الآن لنزوات صروف المصادفة ، إلى نظام مأمون مستقر ، هو نظام المجتمع البورجوازي والدولة ، بحيث أن الشرطة والمحاكم والجيش والحكومة هي التي اخذت الآن محل الاهداف الخيالية التي كان ينشدها الفرسان . وبنتيجة ذلك ، تعرضت فروسية أبطال الروايات الحديثة ، هي الاخرى ، إلى تحول عميق . انهم أفراد يعارضون ، وقلوبهم عامرة بالحب والشرف والمطامح والتطلعات إلى عالم أفضل ، يعارضون النظام القائم والواقع التافه اللذين ينصبان من كل حدب وصوب العقبات في طريقهم . ونظراً إلى جزعهم ونفاد صبرهم أمام هذه العقبات ، تراهم يدفعون برغباتهم ومتطلباتهم الذاتية إلى حد الشطط والمغالاة ، ويعيش كل واحد منهم في عالم مسحور

يضطهده ويخيل إليه أن من واجبه أن يكافحه بسبب المقاومة التي يواجه بها عواطفه وأهواءه ، فارضاً عليه مسلكاً ونمطاً حياتياً تمليهما إرادة أب ومشيئة عمّةٍ والظروف والمواضعات الاجتماعية »[1] .

لا مراء البتة في أن هناك صراعات وحلولاً بورجوازية نوعياً ، كانت تجهلها المراحل التاريخية السابقة (لدى ديغوي وليسنغ وفلوبير وديكنز وابسن وتوماس مان على سبيل المثال) ، لكنها حبلى في سماتها الخاصة بمعنى عام . ام ان تريستان[2] وبارسيفال[3] وسيغفريد[4] لا يعدون كونهم ، هم أنفسهم ، فرساناً إقطاعيين يدينون بمصيرهم كله للشرعة الإقطاعية ؟ إنه لواضح للعيان أن المضمون الطبقي حاضر وماثل ، لكن يرتسم من خلاله شرط الانسانية وحلمها ، ويتجلى الصراع والتوفيق بين الانسان والانسان ، بين الإنسان والطبيعة — إنها معجزة الشكل الجمالي . ويتبدى في المضمون الخاص بعد آخر يمسي معه الرجال والنساء الاقطاعيون أو البورجوازيون مجسدين للجنس البشري ، للكائن الانساني .

صحيح أن الثقافة العليا في المرحلة البورجوازية كانت (ولا تزال) ثقافة نخبوية ، لا تتاح وليست بذات دلالة الا بالنسبة إلى أقلية من اصحاب الامتيازات ، لكن هذه سمة مشتركة بين جميع الثقافات ابتداء من العصور القديمة . ولا مراء في أن الوضع الدوني للطبقة الكادحة (أو غيابها) في هذا العالم الثقافي يجعل منه بكل تأكيد ثقافة طبقية ، ولكن ليس بالضرورة ثقافة بورجوازية . وإذا كان هذا صحيحاً ، فإننا لا نخطىء إذا اكدنا ان الثورة الثقافية تتصدى لاكثر بكثير من مجرد الثقافة البورجوازية ، وأنها تستهدف الشكل الجمالي بما هو كذلك ، والفن بما هو كذلك ، والادب بما هو أدب . وهذا ما تؤكده بالأصل الحجج التي تشهرها الثورة الثقافية هي ذاتها .

---

(١) هيغل : « علم الجمال » ، فصل « الفن الرومانسي » .
(٢) تريستان : بطل رواية من أجمل روايات الحب في القرون الوسطى .
(٣) بارسيفال : من أبطال ملحمة « فرسان المائدة المستديرة » .
(٤) سيغفريد : بطل آخر من الابطال الملحميين في القرون الوسطى . « المترجم »

(٢)

ما عناصر الاتهام الرئيسية الموجهة ضد الشكل الجمالي ؟

ـ انه لا يعبر بصورة مطابقة عن الشرط الانساني الفعلي .

ـ انه منفصل عن الواقع وذلك بمقدار ما يخلق عالماً من الجمال الوهمي ، من العدالة الشعرية ، من النظام والتساوق الفنيين ، عالماً يوفق بين ما لا يمكن التوفيق بينه ، ويبرر ما لا يمكن تبريره .

ـ في عالم التوفيق الوهمي هذا تكون طاقة غرائز الحياة ، وطاقة الجسد الحواسية ، وإبداعية المادة ، تكون جميع هذه القوى مكبوتة ومقموعة ؛ وبالتالي ،

ـ يكون الشكل الجمالي عامل استقرار للمجتمع القمعي ، ويكون بالتالي قمعياً هو نفسه . كان هربرت ريد ، في تظاهرة من أولى تظاهرات الثورة الثقافية (معرض لندن السريالي الأول) ، قد صاغ العلاقة التالية بين الفن الكلاسيكي والقمع باعتبارها موقفاً مبدئياً :

إن الكلاسيكية ، لنقل ذلك بلا مواربة ، تمثل بالنسبة إلينا الآن مثلما مثلت على الدوام قوى الاضطهاد . إن الكلاسيكية هي المرادف الفكري للطغيان السياسي . هكذا كانت في العالم القديم وفي الامبراطوريات القروسطية ؛ ثم اعيدت إلى شرخ الشباب وجرى تجديدها لتعبر عن دكتاتوريات عصر النهضة ، وأمست منذ ذلك اليوم العقيدة الرسمية للرأسمالية ..

إن معايير الفن الكلاسيكي هي معايير معروفة ، معايير التناسق والتناسب والتناظر والتوازن والتساوق ، وكلها سمات سكونية ولا عضوية . هي مفاهـــيم فكرية تحكم أو تقمع الغرائز الحيوية التي يرتبط بها نمو الكائن ، وبالتالي

التغير . وهي لا تمثل بصورة من الصور إيثاراً اختيارياً ، وإنما لا تعدو أن تكون مثلاً اعلى مفروضاً من الخارج »[1] .

إن الثورة الثقافية الراهنة توسع نطاق هذا الرفض لتشمل به جميع الاساليب بلا استثناء تقريباً ، لتشمل به ماهية الفن البورجوازي بالذات .

إن ما تستهدفه هو « الطابع الايجابي » للثقافة البورجوازية ، هذا الطابع الذي ما كان الفن لولاه ليعمل في خدمة النظام القائم تبريراً له وتجميلاً[2] . إن الشكل الجمالي يرجّع صدى عزلة الفرد البورجوازي الحزينة بإشادته بالانسانية العامة الشمولية ، وصدى الحرمان المادي بإشادته بجمال النفس والروح ، وصدى العبودية الاجتماعية بإعلائه منزلة الحرية الداخلية .

بيد ان هذا الايجاب له جدله الذاتي ، فلا وجود لعمل فني لا يشق موقفه الإثباتي بـ « قوة السلبية » ، لا ينم في بنيته بالذات عن كلمات وصور وموسيقى واقع آخر ، نظام آخر يكبته النظام القائم ويحيا مع ذلك حياة الذاكرة والانتظار من خلال ما يحدث للرجال والنساء في تمردهم على الأحداث التي هم ألعوبتها . وحين يضمحل هذا التوتر بين الإيجاب والنفي ، بين اللذة والألم ، بين ثقافة الأفكار والثقافة المادية ، وحين لا يعود العمل الفني يجسد الوحدة الجدلية بين ما هو كائن وما يمكن ان يكون (وما يجب ان يكون) ، يفقد الفن حقيقته ويخسر نفسه . والحال أنه إنما في الشكل الجمالي على وجه التحديد يكمن ذلك التوتر كما تكمن الجوانب النقدية ، النافية ، التجاوزية للفن البورجوازي — سماته المناهضة للبورجوازية . وإنها لواحدة من مهمات الثورة الثقافية أن تعثر على تلك الجوانب من جديد ، وأن تحولها ، وأن تنقذها من التصفية .

إن المرحلة الجديدة من السيرورة التاريخية التي فيها تتم الثورة الثقافية ، مرحلة الانحلال المتسارع للنظام الرأسمالي ورد الفعل المكثف والمشدد ضد

---

(١) « السريالية » ، تقديم هربرت ريد ، نيويورك ١٩٦٣ ، ص ٢٣ و ٢٥ .
(٢) انظر مقالي « طابع الثقافي الايجابي » (عام ١٩٣٧) .

هذا الانحلال ، أي تنظيم الارهاب المضاد للثورة ، تبدو وكأنها تطالب بذلك التقييم المختلف ، الايجابي ، للشكل الجمالي ، وبتلك الثقة في صحته وصلاحيته لإعادة بناء جذرية للمجتمع . وبمقدار ما تتغلب الثورة المضادة على الانحلال وتتمكن منه ، تجد المعارضة نفسها « منفية » إلى الميادين الثقافية والثقافية الفرعية لتعثر فيها على الصور والنبرات القادرة على اقتحام عالم الإنشاء القائم وعلى تمهيد السبيل أمام المستقبل .

إن الوضع الراهن ادهى وانكى مما كان عليه في المرحلة التي تمتد من بدايات الفن الحديث (في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر) إلى صعود الفاشية . فلقد قُهرت الثورة في الغرب ، وأظهرت الفاشية كيف يمكن تحويل الإرهاب إلى مؤسسة لإنقاذ النظام الرأسمالي ، ولم تعد الطبقة العاملة في البلد الصناعي الاكثر تقدماً الذي ما يزال يهيمن على النظام على الصعيد العالمي طبقة ثورية . وبالرغم من أن الثقافة البورجوازية الكلاسيكية قضت نحبها ، فقد حيل دون تطور ثقافة مستقلة ما بعد بورجوازية (اشتراكية) . وبدون ارض ولا قاعدة اجتماعية تبدو الثورة الثقافية رفضاً مجرداً اكثر منها وريثة تاريخية للثقافة البورجوازية . ونظراً إلى عدم وجود طبقة ثورية تقودها ، نراها تبحث عن مرتكز لها وسند في اتجاهين متباينين ، بل متعارضين : فهي ترغب من جهة اولى في أن تعطي عواطف « الجماهير » (التي ليست هي بثورية) وحاجاتها كلمتها وصورتها ونبرتها ، وهي تنشىء من الجهة الثانية أشكالاً مضادة لا تعدو أن تكون تجزئة وتفتيتاً للأشكال التقليدية : أشعاراً هي محض نثر عادي مقطع إلى « أبيات » ، رسوماً تكتفي بتركيب تقني محض لأجزاء وقطع بدلاً من كلية دالة ، موسيقى تستغني عن التناغم الكلاسيكي « الفكري » الرفيع ، « المنفصل عن العالم » ، بتعدد أصوات هو في غاية الانفتاح والعفوية . لكن الاشكال المضادة عاجزة عن ردم الهوة بين الفن و « الحياة الواقعية » . فمثل هذه الميول تعارضها ميول تبعث الفن البورجوازي بعثاً جذرياً وتصون في الوقت نفسه ما كان وجه تقدم فيه .

لقد كان التسلسل والتناسب والتساوق ، بالفعل ، سمات جمالية جوهرية وأساسية لتلك التقاليد . بيد أن هذه السمات ليست « مفاهيم فكرية » كما أنها لا تمثل « قوى القمع » . بل تكاد بالأحرى أن تكون نقيض ذلك ، أعني بها فكرة أو تصور عالم معاد فتحه ، مخلص ، معتوق من قوى القمع . وهذه السمات « سكونية » لأن العمل الفني « يحتوي » الحركة المدمرة للواقع ، ولأن له على الدوام « غاية »[1] ، لكنها سكونية الإنجاز ، سكونية الراحة : نهاية العنف ، الأمل المتجدد دوماً وأبداً الذي به تختتم مآسي شكسبير ، الأمل بالإمكانية الراهنة لعالم مختلف . إنها سكونية موسيقى أورفيوس التي توقف معارك العالم الحيواني – والتي تكاد أن تكون سمة مشتركة لكل موسيقى عظيمة[2] . والمعايير التي تتحكم بالتناسق الفني ليست هي المعايير التي تتحكم بالواقع ، وإنما هي بالأحرى معايير نفي هذا الواقع : انها النظام الذي يفترض فيه أن يسود بلاد مينيون[3] ، و « دعوة الى الرحيل » لبودلير[4] ، ومناظر

---

(١) بذلك ينطرح السؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان لا يشتمل في ذاته على حدود للموضوع ، وما إذا لم يكن من الواجب أن تستبعد سلفاً بعض المواضيع لتنافيها مع الفن . على سبيل المثال : القساوة ، والعنف ، وما إلى ذلك مما يقدم لنا بدون علامات نافية . ومما لا جدال فيه أن هناك لوحات هامة من مشاهد القتال ، والتعذيب ، والصلب ، لا توحي البتة بتمرد على الحديث . فإذا كانت هذه الاعمال لا تحمل رسالة الحقيقة ، تلك ، التي هي حقيقة الفن بالذات ، فهل يمكن أن تكون حقاً وفعلا اعمالا فنية بغير التقني المحض ؟ إن الفن ، في مثال هذه الاعمال ، يتحول فعلا الى إثبات وإيجاب خالص . ومهما كانت هذه الاعمال على درجة رفيعة من الجمالية ، فما من شيء يمكن أن ينقذها من الغرق في « الزخرفة » : فهي تفتقر إلى ضرورة (ضرورة عميقة) .

(٢) كان نيتشه يتساءل : « ألا تنتمي الموسيقى إلى ثقافة يكون قد وضع فيها حد لملكوت كل ضرب من ضروب العنف ؟ » – الأعمال الكاملة ، شتوتغارت ١٩١١ ، المجلد ١٦ ، ص ٢٦٠ .

(٣) مينيون : من اجمل واعمق الشخصيات المؤنثة التي خلقها غوته في « وهلم مايستر » ، وقد اتخذت موضوعاً لأوبرا كوميدية لحنها امبرواز توما .

(٤) «دعوة إلى الرحيل» : قطعة نثرية مشهورة لبودلير يتحدث فيها عن بلد وهمي هو آية في الجمال والروعة .

كلود لوران[1] .. ، النظام الذي ينصاع لـ « قوانين الجمال » ، لقوانين **الشكل** .

مما لا جدال فيه أن الشكل الجمالي يتضمن **نظاماً آخر** قابلاً كل القابلية لأن يمثل قوى القمع ، نظاماً يخضع البشر والاشياء لداعي المصلحة العليا او لداعي المجتمع القائم . ونظام كهذا يتطلب الخنوع ، والسطوة ، وهيمنة « الغرائز الحيوية » ، والاعتراف القانوني بما هو كائن . نظام يقلده **القدر** ، أو الآلهة ، أو الملوك ، او الحكماء ، او الضمير ، او الشعور بالذنب ، قوة تنفيذية ، وقد يكون احياناً قائماً فحسب . وهذا النظام هو الذي يتغلب وينتصر على هاملت ، والملك لير ، وشايلوك ، وانطونيو ، وبيرينيس ، وفيدرا ، وعلى مينيون ، ومدام بوفاري ، وجوليان سوريل ، وروميو وجولييت ، ودون جوان ، وفيوليتا — وجميعهم منشقون وخوارج وضحايا وعشاق على امتداد الأزمنة . لكن حتى عندما تحل عدالة الاثر الفني المتجردة النزيهة الواقع الوطيد الأركان من جريمة الاضطهاد وتبرئه منها ، ينقلب الشكل الجمالي على هذا التجرد وهذه النزاهة ، ويناوئهما ويعاكسهما ، ويعظّم الضحية ويمجدها ؛ فحقيقته إنما هي كامنة في الجمال ، في الحنان ، في هوى الضحايا ، لا في عقلانية المضطهِدين .

ليست المعايير التي تتحكم بالنظام الجمالي « مفاهيم فكرية » او « ذهنية » . وصحيح أنه لا وجود لأثر فني حقيقي وأصيل من دون مجهود فكري فائق ، من دون انضباط فكري صارم في إنشاء المادة وصياغتها . فالفن « الآلي » لا وجود له ، وهو لا يعدو ان يكون مزحة ؛ كما أن الفن لا « يقلد » ولا « يحاكي » ؛ بل يعقل العالم ويضبطه . والمباشرية الحواسية التي يدركها تستدعي تركيباً مسبقاً للإدراك تبعاً لمبادىء عامة ، تركيباً هو وحده القمين بأن يقلد

---

(١) كلود لوران : رسام فرنسي (١٦٠٠ – ١٦٨٢) اختص بتصوير المناظر الطبيعية ، ودعي برسام الشمس والنور .

الأثر الفني دلالة مغايرة لتلك التي له في نظر صانعه ومبدعه . انه تركيب لمستويين من الواقع ، متناحرين متصادمين : نظام الأشياء القائم ، والتحرر الممكن او المستحيل . وعند هذين المستويين يتفاعل ما هو تاريخي وما هو عام ويؤثر كل منهما على الآخر . وفي التركيب بالذات يلتئم شمل الحساسية والمخيلة والذكاء .

وتكون نتيجة ذلك خلق عالم — موضوع مغاير للعالم القائم ، ولكنه متفرع عنه مع ذلك . بيد أن هذا التحوير لا يمارس عنفاً على المواضيع (الانسان والاشياء) ؛ بل يتكلم على العكس بالأصالة عنها ، ويعطي كلاماً ونبرة وصورة لما هو صامت ، مشوه ، مضغوط في الواقع القائم . وهذه الطاقة المحررة والإدراكية ، الملازمة للفن ، متضمنة في أساليبه كافة وأشكاله قاطبة . وحتى في الرواية أو الرسم الواقعيين اللذين يسردان القصة كما كان يمكن أن تقع (وربما كما وقعت فعلاً) في زمان بعينه ومكان بعينه ، يحوّر الشكل الجمالي التاريخ ويغيره . فليس بذي اهمية ان يتكلم أشخاص الأثر الفني أو يتصرفوا كما فعلوا « في الواقع » ؛ وليس بذي اهمية ان يكون لكل شيء سيماء من « الواقعية » في الاثر الفني ، وذلك لأن هناك بعداً آخر يظل ماثلاً في وصف المحيط المكتنف ، في تبَنْيُن الزمان والمكان (الداخليين والخارجيين) ، في الصمت المنطوق ، في ما لا وجود له هنا[1] ، في الرؤية الكونية (الصغرى أو الكبرى) للاشياء . هكذا يسعنا ان نقول إن الأشياء موضوعة في الشكل الجمالي في مكان هو غير المكان الذي تحتله في الواقع ،

---

(١) لنستشهد هنا بميرلو بونتي وهو يتكلم عن ستندال في « نثر العالم » ، باريس ١٩٦٩ ، ص ١٢٤ :
« من الممكن أن يسرد موضوع الرواية كما من الممكن أن يسرد موضوع اللوحة ، لكن قيمة الرواية ، مثلها مثل قيمة اللوحة ، لا تكمن في الموضوع ، فليس المهم أن يعلم جوليان سوريل ان مدام دي رينال خانته ، ولا ان يذهب الى فيريير ليحاول قتلها ، وإنما المهم بالأحرى ، بعد القصة ، هو الصمت ، هو ذلك الامتطاء لصهوة الحلم ، ذلك اليقين بلا فكر ، ذلك التصميم الأبدي ... والحال أن هذا لا يقال في أي موضع » .

بمحض المصادفة ، وإن دلالتها إنما هي نابعة من هذا التحويل على وجه التحديد .

صحيح ان التحويل الجمالي خيالي ، ولكن لا مناص من أن يكون كذلك ، إذ هل في استطاعة اي ملكة اخرى غير الخيال أن تستحضر الوجود الحسي لما ليس كائناً (أو لما ليس كائناً بعد؟ ان ذلك التحويل حسي اكثر منه مفهومياً وعقلياً ، والمفروض فيه أن يحقق لذة (« لذة مجردة ») ؛ وهو أبداً وفيّ للانسجام والتناسق . فهل يجعل مثل هذا الوفاء من الفن التقليدي ، بالحتم والضرورة ، عامل قمع ، بعداً من أبعاد النظام المناظر له ؟

(٣)

لم يكن الطابع الإثباتي للفن يكمن في انفصاله عن الواقع بقدر ما كان يكمن في تصالحه الخارجي السهل مع الواقع المعطى : فقد كان بمثابة ديكور وزخرفة له ، وكان يُمثّل ويُتحسس على أنه قيمة تعويضية مكافئة ، لا تلزم احداً بشيء ، يميز امتلاكها الفئة « العليا » من المجتمع ، الناس الذين اتيح لهم تعليم وتربية ، عن سائر الجماهير . لكن قوة الفن الاثباتية هي أيضاً القوة التي تنكر هذا الإثبات . وقد بذلت الاقطاعية والبورجوازية كل ما في وسعهما لاستخدامه رمزاً لكيانهما ، موضوعاً لاستهلاك ومستوى « لائق » من الحياة ، علامة من علامات التنعم والتفنن ، لكن الفن حافظ مع ذلك على اصله الذي هو الانسلاخ عن الواقع القائم . إنه انسلاخ ثانٍ يفك الفنان بواسطته تضامنه مع المجتمع المستلب المنسلخ عن نفسه ليخلق العـــالم اللاواقعي ، « الوهمي » ، حيث يمتلك الفن حقيقته ويوصلها ويبلغها . وفي الوقت نفسه يعيد هذا الانسلاخ ربط الفن بالمجتمع : فهو يصون مضمونه الطبقي ويجعله شفافاً . إن الفن ، من حيث أنه ايديولوجيا ، يطعن في الايديولوجيا السائدة وينقضها . أما المضمون الطبقي فيسبغ عليه طابع مثالي وينمق ويوشى ، فيصبح بالتالي قابلاً لتلقي حقيقة عامة ، شمولية ، تتجاوز المضمون الطبقي الخاص .

هكذا يزخرف المسرح الكلاسيكي وينمق عالم الامراء والنبلاء و « البورجوازيين الواقعيين » في المرحلة المناظرة . فما كانت هذه الطبقة الحاكمة تتكلم أو تتصرف كما يتكلم ويتصرف الابطال الذين يجسدونها على خشبة المسرح ، لكنها كانت تستطيع على الأقل أن تتعرف فيهم ايديولوجيتها الذاتية ونموذجها (أو كاريكاتورها)[1] . لقد كان ما يزال في مستطاع بلاط فرساي أن يفهم مسرح كورناي وأن يتعرف فيه قانونه الايديولوجي ؛ كذلك لا بد ان بلاط فايمار كان يتعرف ايديولوجيته في بلاط طاوس في تمثيلية غوته « ايفيجينيا » ، أو في بلاط فيراري في مسرحيته « توركاتو تاسو » .

لقد كان مستوى تقاطع الفن والواقع هو اسلوب الحياة . فقد كان للطبقة النبيلة الطفيلية شكلها الجمالي الخاص الذي كان يتطلب مسلكاً طقسياً : الشرف ، الكرامة ، الابهة ، بل أيضاً سمو الافكار والتربية . لقد كان المسرح الكلاسيكي محاكاة وتصويراً مثالياً نقدياً لذلك النظام في آن واحد . لكنه كان ما يزال يجاهر بأنه غير متضامن معه ، وهذا بالرغم من تسوياته وبالرغم من كل ما كان يربطه بالواقع القائم . وفي المسرح يتجلى الانسلاخ الفني في الديكور التاريخي ، واللغة ، و « المبالغات » ، والاختصارات .

إن كيفيات الانسلاخ تتبدل طرداً مع التحولات الأساسية في المجتمع . فمع التصنيع الرأسمالي والديموقراطية البورجوازية فقدت الكلاسيكية ، بالفعل ، الشيء الكثير من حقيقتها ، فقدت ارتباطها وقرابتها مع دستور الطبقة الحاكمة وثقافتها . ولا تستطيع اليوم أي مخيلة ، مهما كانت منفلتة من عقالها ، أن تجد أدنى صلة قربى بين الكلاسيكية والبيت الابيض ، كما أن ما كان متصوراً ومعقولاً عند الاقتضاء في ظل فرنسا الديغولية يصبح غير قابل للتخيل في عهد بومبيدو .

إن الانسلاخ الفني يجعل الأثر الفني ، العالم الفني ، غير واقعي في جوهره .

---

(١) انظر ليو لوونتال « الادب وصورة الانسان » ، بوسطن ١٩٥٧ ، ولا سيما المدخل والفصل الرابع .

إنه يخلق عالماً لا وجود له، عالماً ظاهرياً ووهمياً . لكن حقيقة الفن الهدّامة إنما تتجلى في هذا التحويل للواقع إلى وهم ، وفي هذا التحويل وحده .

إن كل كلمة أو لون أو صوت في هذا العالم « جديدة » ، مغايرة ،تخرج عن السياق المألوف للإدراك والفهم ، ليقين العقل والحواس التي تطوق الانسانية والطبيعة وتحدق بهما . إن الكلمات والاصوات والأشكال والالوان تغدو معزولة ، مخالفة لوظيفتها واستخدامها المألوفين ، حين تتحول إلى مركبات في الشكل الجمالي، وبذلك تتحرر وتنعتق برسم بُعد جديد للوجود . إنها « معجزة » **الاسلوب** ، التي هي القصيدة او الرواية أو اللوحة أو القطعة الموسيقية . وحين يخضع الاسلوب ، الذي هو تجسيد للشكل الجمالي ، الواقع لنظام آخر ، فإنه يخضع هذا الواقع لـ « قوانين الجمال » .

إن الحقيقة والزيف ، الخير والشر ، الألم واللذة ، الهدوء والعنف ، تغدو مقولات جمالية في إطار الأثر الفني . وبتحررها على هذا النحو من واقعها (المباشر) ، تدخل في سياق مختلف تؤلف فيه حتى القباحة والقساوة والمرضية جزءاً من التناغم الجمالي المتحكم بالكل . وهذا لا يعني أن هذه العناصر قد « ألغيت » : فالشناعة في رسوم غويا تظل شناعة ، لكنها « تؤبّد » و « تخلّد » في الوقت نفسه النفور من الشناعة .

(٤)

لقد أشرت في القسم الثاني من هذا الكتاب إلى بقاء النظرية القديمة عن التذكر على قيد الحياة في النظرية الماركسية . وفكرة التذكر هذه تشير إلى صفة مقموعة لدى البشر والأشياء ، صفة ما ان يتعرفها المرء ويستعيدها من جديد حتى تغدو قادرة على إحداث تغير جذري في العلاقة بين الانسان والطبيعة . ولقد حصرتْ المناقشة حول كتابات ماركس الاولى مفهوم التذكر في سياق « تحرر الحواس » : الجمالية من حيث أنها تميط اللثام عن الحساسية

وتظهرها للعيان . والآن ، وفي اللحظة التي نهم فيها بالتطرق إلى النظرية النقدية عن الفن ، نجد أنفسنا من جديد في مواجهة فكرة التذكر : والمقصود هنا « الجمالية » من حيث أنها خاصة الفن ومميزته .

إن الفن على أول مستوياته تذكر ، فهو يخاطب تجربة وعقلاً في مرحلة ما قبل مفهومية من تطورهما ، تجربة وعقلاً يعاودان انبجاسهما في سياق أداء الإدراك والفهم لوظيفتهما الاجتماعية وضده ــ ضد العقل والحساسية الاداتيين .

والفن ، ببلوغه هذا المستوى الأول ــ النقطة النهائية للمجهود الفكري ــ يقتحم التابوات والمحرمات وينتهكها : فهو يعبر صوتاً وسمعاً وبصراً لأشياء هي في العادة مقموعة : أحلام ، ذكريات ، حنين ملتاع ــ هذه الخنادق الأخيرة للحساسية . وهنا يزول كل أثر من تثبيت مفروض فرضاً من الأعلى : فالشكل ، بدلاً من أن يقمع ملاء المضمون ، يظهره للعيان بتمامه وكماله . ويزول التمرد والامتثالية على حد سواء ، ولا يعود هناك وجود لغير الألم والفرح . وهذه الصفات المتناقضة ، هذه النقاط السامية للفن تبدو وكأنها وقف على الموسيقى (التي « تقدم أعمق نواة سابقة لكل شكل ، قلب الأشياء ولبها بالذات »[1]) ، وفي قلب الموسيقى ، وقف على اللحن . فاللحن هو وحدة التذكر الاساسية : فهو يتكرر مهما تنوعت الأنغام ، ويدوم حتى عندما يكون معلقاً ، ويغذي النقطة العليا تجاه غنى الأثر وتعقيده وضدهما في آن معاً . إنه صوت دنيا اخرى غير هذه الدنيا ، وجمالها ، وهدؤوها ، وهو بوجه خاص الصوت الذي يؤلف البنية الثنائية البعد للموسيقى الكلاسيكية والرومانسية .

إن العروض في المسرح الكلاسيكي هو الصوت الغالب للعالم الثنائي البعد . فالبيت يجابه ويتحدى قواعد اللغة العادية وينذر نفسه للتعبير عما يبقى غير

---

(١) آرثر شوبنهاور : « العالم كارادة وكتصور » .

مقول في الواقع القائم . وهنا أيضاً يجعل وزن الشعر انبجاس الواقع غير الواقعي وحقيقته ممكناً حتى قبل أن يوجد أي مضمون محدد . فـ « قوانين الجمال » تكيف الواقع وتصنّعه لتجعله شفافاً . والخطاب « السامي » لأبطال المسرح الكلاسيكي هو الذي ينم عما هو كائن وينبذه في آن واحد، وليس فقط افعالهم وآلامهم .

وبالمقابل يتطور المسرح البورجوازي (أقصد المسرح الذي ينتمي أبطاله إلى البورجوازية) دفعة واحدة ومباغتة باتجاه عالم جمالي مسفّل ، مجرد من طابعه المثالي . ويحل النثر محل الشعر ، ويتلاشى الديكور التاريخي : وتمسي الواقعية ضرورية . ويخلي الشكل الكلاسيكي الساح لأشكال منفتحة (« العاصفة والإعصار ») [1] . لكن الافكار المساواتية للثورة البورجوازية تفجر العالم الواقعي النزعة : فالصراع الطبقي بين النبلاء والبورجوازيين يتلبس شكل مأساة لا حل لها . وحين لا يعود هذا الصراع أخيراً يشغل المقام الأول ، يتم تجاوز المضمون البورجوازي المحض بطريقة أو بأخرى : ففي مسرحيات إبسن او هوبتمان على سبيل المثال تبرز شخصيات أو مواقف العالم بشيرة بالفاجعة والتحرر لتشوش العالم البورجوازي وتخربه .

وليست الرواية منغلقة دون هذا التجاوز الجمالي . فمهما تكن « الحبكة » أو البيئة الخاصة التي منها يتألف موضوعها ، يمكن لنثرها أن يفجر العالم القائم . وربما كان كافكا اسطع مثال على ذلك . فهو يبتر الصلات بالواقع المعطى دفعة واحدة إذ يسمي الأشياء بأسمائها ، ولكن من دون أن تصيب هذه الاسماء هدفها . ويغدو التباين بين ما يقوله الاسم وبين ما هو كائن تبايناً لا يذلل ولا يقهر . ام أن التطابق والتماثل الحرفي هو الذي يثير على العكس النفور والاشمئزاز ؟ مهما يكن من أمر ، فإن هذه اللغة تقطع الصلة بالنفاق و « المسخرة » ، وتقتحم خطوطها وخنادقها : فالوهم إنما يمكن في

---

(١) اسم اقوى تيارات الرومانسية الألمانية . « المترجم »

الواقع بالذات ، لا في الاثر الفني . إن هذا الاثر متمرد ببنيته بالذات ؛ وكل تصالح مع العالم يصوره هو شيء غير قابل لأن يتصور .

إن هذا الانسلاخ الثاني هو ما تقضي عليه بالاضمحلال الجهود المنسقة الحالية لتصغير ، ان لم نقل لردم الهوة بين الفن والواقع . إن هذه الجهود مكتوب عليها الفشل . وصحيح أن مسرح عصابات الأنصار وشعر الصحافة الحرة ورقصة الروك متمردة ، ولكنها ما تزال مرتبطة بالفن وان يكن قد فقد قوته النافية . فهي بمقدار ما تندمج بالحياة الواقعية تخسر التجاوز الذي يعارض **النظام** بالفن ، وتبقى بالتالي **محايثة** ، **ملازمة** للنظام القائم . ولا منجى أمامها ولا مهرب من ذلك ، ما دامت أحادية البعد . إن « الصفة الحياتية » المباشرة هي بالتحديد حجر عثرة الفن المضاد وندائه . فهذا الفن المضاد يتحرك في العالم القائم ، الآن وهنا ، وفيه يشير المشاعر ، وينهك نفسه في مطالبته بنهايته في صرخة من التمرد العاجز .

صحيح أن الفن الكلاسيكي والرومانسي يخلق شعوراً عميقاً بالضيق والانزعاج . وهو يبدو إلى حد ما وكأن الزمن قد عفّى عليه، وكأنه فقد معناه وحقيقته . فهل لأن هذا الفن « سام » و « مصعّد » اكثر مما ينبغي ، وهل لأنه قمعي إذ يقايض الروح الواقعية ، الحية ، بروح « فكرية » ، ميتافيزيقية ؟ أم ان الصحيح هو **العكس بالضبط** من قبيل المصادفة ؟

لعل تطرف هذا الفن يصدمنا اليوم لأنه يعبر تعبيراً مباشراً جداً ، بلا تحفظ ولا **تصعيد** ، عن العذاب والألم ، فلا نملك إلا أن يأتي رد فعلنا نوعاً من الخجل امام هذا الضرب من المرض الاستعرائي ومن حاجة النفس إلى البوح والانسكاب . . ولعلنا لم نعد على مستوى هذه **الفخامة** التي تحملنا إلى حدود الوجود الانساني ، وتجعلنا نتجاوز حدود الاحتواء الاجتماعي . ولعل هذا الفن يفترض ، من جانب المرسل إليه ، مسافة التفكر والتأمل ، صمتاً وقابلية للتلقي مقصودين ينكرهما « الفن الحي » المعاصر .

إن ضمور أجهزة وأعضاء الانسلاخ الفني ينجم عن سيرورات مادية للغاية . فقد غزا التنظيم التوتاليتاري للمجتمع وعنفه وعدوانيته المجال الداخلي والخارجي الذي كان ما يزال ممكناً لنا فيه أن نحس ونقبل عن طيب خاطر بالتطرف الجمالي للفن . فهذا التطرف يتناقض صارخ التناقض مع فظاعات الواقع وشناعاته ، تناقضاً هو بمثابة مهرب من الواقع الذي بلا منفذ . ويتطلب هذا التطرف درجة من تحرر التجربة المباشرة ، درجة من التقشف « الذي بات شبه مستحيل وشبه كاذب » . إنه فن لا يمت بصلة إلى المسالك المعتادة ، فن غير عملياتي ، لا يحث على شيء إلا على التفكر والاستذكار ، وهما أفق الحلم . لكن على الحلم ، بدلاً من أن يحلم بالشرط الانساني ، أن يصبح قوة تغيير ، أن يغدو قوة سياسية . وإذا ما حلم الفن بالتحرر ضمن نطاق السلم الطيفي للتاريخ ، فإن تحقيق الحلم بواسطة الثورة لا بد أن يكون ممكناً — ولا بد أن يكون البرنامج السريالي قد حافظ على قيمته . فهل تفتح الثورة الثقافية مجال التحقيق امام هذه الامكانية ؟

(٥)

تبقى الثورة الثقافية قوة تقدم جذرية . بيد أن مجهودها لتحرير طاقة الفن السياسية يصطدم **بتناقض غير محلول** . فالطاقة الهدامة هي من طبيعة الفن بالذات ، لكن كيف السبيل إلى ترجمتها في الواقع الراهن ، كيف السبيل إلى التعبير عنها لتُتخذ دليلاً ومرشداً وعنصراً في ممارسة التغيير ، من دون ان يكف الفن عن ان يكون فناً ، ومن دون أن يجرد من قوته الهدامة **الداخلية** ؟ كيف السبيل الى ترجمة هذه الطاقة بحيث يتم استبدال الشكل الجمالي بـ « شيء ما **واقعي** » ، حي ، لكنه شيء يتجاوز في الوقت نفسه وينفي وينكر الواقع القائم ؟

لا يستطيع الفن أن يعبر عن طاقته الجذرية إلا **من حيث أنه فن** ، في لغته

وصوره التي **تطعن في** اللغة الدارجة ، في **نثر العالم** .

هكذا تتجاوز « رسالة الفن التحريرية » اهداف التحرر الواقعية الملموسة ، مثلما تتجاوز النقد الفعلي للتحرر . إن الفن يبقى وفياً **للمثال** (بحسب مفردات شوبنهاور) ، للعام من خلال الخاص ؛ ولما كان التوتر بين المثال والواقع ، بين العام والخاص ، سيدوم في ارجح الظن إلى يوم غير معلوم ، فلا مفر من أن يبقى الفن **انسلاخاً** . وإذا لم يخاطب الفن الجماهير ، بفعل هذا الانسلاخ ، فتبعة ذلك تقع على المجتمع الطبقي الذي يخلق الجماهير ويعمل على تأبيدها وتخليدها . ويوم ينجح مجتمع بلا طبقات في تحويل الجماهير إلى أفراد « متشاركين تشاركاً حراً » ، فسيفقد الفن طابعه النخبوي ، لكنه لن يفقد انفصاله عن الواقع وخارجيته عنه . إن التوتر بين الإيجاب والسلب ، بين الإثبات والنفي ، يستبعد سلفاً كل تشبيه للفن بالممارسة الثورية . فالفن لا يستطيع ان يمثل الثورة[1] ، وكل ما يستطيعه هو أن يستحضرها في « دائرة » اخرى ، في شكل جمالي لا يملك معه المضمون السياسي إلا أن يغدو ميتاسياسياً[2] محكوماً بضرورة الفن الداخلية . ويتجلى هدف كل ثورة (عالم من الطمأنينة والحرية) في دائرة لا سياسية بالمرة ، تسودها قوانين الجمال والانسجام . اليكم كيف كان سترافنسكي يتصور الثورة في رباعيات بتهوفن :

« إن قناعتي لعميقة ، شخصياً ، بأن الرباعيات هي إعلان عن حقوق الانسان ، إعلان دائم التحريض على الفتنة ، بالمعنى الأفلاطوني لتدميرية الفن ..

---

(١) هناك بالتأكيد لوحات كبيرة عن الثورة الفرنسية مثل « موت دانتون » لبوخنر ، أو عن ثورة ١٨٤٨ مثل « التربية العاطفية » لفلوبير . والحال أن هذه اللوحات نقدية ، ان لم نقل معادية ، معادية للممارسة الثورية العينية ولمقتضياتها في ذلك العصر . وهناك أيضاً قصيدة وليم بليك الملحمية العظيمة التي تنتهي قبل اجتماع ممثلي الأمة في عام ١٧٨٩ ، ولكنها بمثابة تحوير كوني للثورة تشارك فيه الجبال والأنهار والوديان في المعركة السياسية .

(٢) أي ما وراء السياسي .

« إن الرباعيات تجسد فكرة رفيعة عن الحرية .. تحتوي وتتجاوز في آن واحد ما أشار اليه بتهوفن بنفسه حين كتب (إلى الأمير غالتزين) عن أمله في تقديم « المساعدة للانسانية المعذبة » بواسطة موسيقاه . إن الإنسان يقيس نفسه وحدوده فيها ... وهي تؤلف جزءاً من حصيلة صفات الكائن الانساني ، ووجودها ضمانة له »[1] .

إن حدثاً رمزياً يعلن عن الانتقال من الحياة اليومية إلى دائرة مختلفة مطلق الاختلاف ، هذا الحدث هو « القفزة » من العالم الاجتماعي القائم إلى عالم الفن المنفصل ، المغرَّب ، هو حدث الصمت :

إن اللحظة التي تبدأ فيها قطعة جديدة من الموسيقى تقدم إشارة إلى طبيعة كل فن . وفظاظة هذه اللحظة ، بالمقارنة مع الصمت السابق لها الذي لا يمكن لا عده ولا إدراكه ، هي الفن ... هذه اللحظة تكمن في التمييز بين الواقعي وبين المرغوب فيه . ان كل فن محاولة ترمي إلى الاحاطة بهـذا التمييز وإلى جعله لا طبيعياً »[2] .

وليس في الموسيقى وحدها يندمج هذا الصمت بالشكل الجمالي : فآثار كافكا بأجمعها متشربة به ؛ وهو كلي الحضور في « نهاية الجولة » لبيكيت ؛ كذلك نلقاه في لوحة من لوحات سيزان :

« إن الفن انسجام موازٍ للطبيعة ... وينبغي أن تكون ارادة الرسام كلها مجبولة من الصمت . عليه أن يخرس في داخله جميع أصوات الآراء المسبقة ، وأن ينسى ، ينسى ، أن يصمت ، أن يكون محض صدى »[3] .

---

(١) ايغور سترافنسكي في « نيويورك ريفيو اوف بوكس » ، ٢٤ نيسان ١٩٦٩ ، ص ٤ .
(٢) جون برجيه « التكعيبية» ، نيويورك ١٩٦٩ ، ص ٣١ .
(٣) من كلمة لسيزان اوردها ماكس رافائيل في « مطالب الفن » ، برنستاون ١٩٦٨ ، ص ٨ .

ليس « صدى » للطبيعة المباشرة ، للواقع ، وانما للواقع الذي ينبجس من التنسك الفاصل بين الفنان والواقع المباشر — بما فيه واقع الثورة .

إن العلاقة بين الفن والثورة وحدة من المتناقضات ، وحدة تناحرية . فالفن ينصاع لضرورة هي ضرورته ، كما أن له حرية ، وهي حريته ؛ وليستا هما ضرورة الثورة وحريتها . إن الفن والثورة يلتقيان من أجل « تغيير العالم » ، من أجل التحرر . لكن الفن في الواقع وفي الممارسة لا يتخلى عن متطلباته الخاصة ومقتضياته الذاتية ، ولا يتنازل عن بعده الخاص به : فهو يبقى غير عاملي . إن الهدف السياسي في الفن لا يتجلى إلا من خلال التحوير الذي هو كنه الشكل الجمالي . ومن الممكن كل الإمكان أن تكون الثورة غائبة عن الأثر الفني ، وذلك في الوقت نفسه الذي يكون فيه الفنان « ملتزماً » أي ثورياً بالمعنى العيني للكلمة .

يعيد اندريه بريتون إلى الاذهان مثال كوربيه ورامبو . ففي عام ١٨٧١ ، كما هو معروف ، كان كوربيه عضواً في مجلس العامية ، وهو يُعد مسؤولاً عن هدم عمود الفاندوم . وقد كافح في سبيل « فن حر وغير متمتع بامتيازات » ، ومع ذلك نجد لوحاته (بعكس رسومه) لا تتضمن شهادة مباشرة عن الثورة ، وهي فارغة من « المضمون السياسي » . وبعد هزيمة العامية وتذبيح أبطالها انصرف كوربيه إلى رسم الطبيعة الميتة .

« ان بعض تفاحاته .. الخارقة ، الهائلة ، الضخمة ، ذات الوزن والحسية غير المألوفين ، هي اعظم قوة واكثر « احتجاجية » من كل رسم سياسي [1] » .

وبصدد كوربيه ايضاً يكتب بريتون :

« لا مناص من الاعتراف بأن كل شيء يجري عنده كما

---

(١) اندريه فرنيجييه ، نقلا عن روبير فرنييه : « غوستاف كوربيه » ، باريس ١٩٦٩ ، ص ١١٠ .

لو أنه ارتأى أن الايمان العميق بتحسن العالم الذي كان يعتمر قلبه لا بد أن يجد وسيلة لكي ينعكس في كل شيء يسعى إلى استحضاره ، وأن يتجلى عـــلى حد سواء في النور الذي يسقطه على الافق أو على بطن سنجاب »[1] .

أما رامبو ، الذي كان يناصر عامية باريس ، فقد حرر دستوراً لمجتمع شيوعي ، لكن فحوى ما كتبه في السياق المباشر للعامية « لا تكاد تختلف إلا في أدنى الحدود الممكنة عن فحوى أشعاره الأخرى » . فالثورة ، الماثلة من البداية في اشعاره ، تظل ماثلة فيها إلى النهاية ، وذلك من حيث أنها شاغل له صفة تقنية ، شاغل « ترجمة العالم إلى لغة جديدة »[2] .

هكذا يغدو « الالتزام » السياسي مسألة تقنية فنية ، إذ ليس المطلوب ترجمة الفن (الشعر) إلى واقع ، وإنما ترجمة الواقع إلى شكل جمالي جديد . ويتجلى الرفض والنقض الجذري في الطريقة التي يتم بها تجميع الكلمات ، وترتيبها ، وتحريرها من استعمالها وسوء استعمالها المعتادين . **سيمياء الكلمة** ؛ الصورة ، الصوت ، خلق واقع آخر مستمد من الواقع القائم ؛ ثورة خيالية دائمة ، انبجاس « تاريخ ثانٍ » في قلب الاستمرارية التاريخية .

التهديم الجمالي الدائم : هذا هو طريق الفن .

إن فكرة إلغاء الشكل الجمالي ، فكرة أن الفن يمكن أن يغدو جزءاً لا يتجزأ من الممارسة الثورية وما قبل الثورية وأن يترجم ذات يوم اخيراً بصورة مطابقة في الواقع (أو أن يمتصه « العلم ») في ظل اشتراكية مدركة كامل مداها ، إن هذه الفكرة خاطئة واضطهادية : فلو تحققت لكان معناها نهاية الفن . وقد أحسن مارتن والسر التنديد بهذا الخطأ فيما يتعلق بالأدب .

« إن استعارة « موت الادب » جاءت قبل اوانها بكثير :

---

(١) « الموقف السياسي للسريالية » ، باريس ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

فالأدب لن يموت إلا يوم تختلط الاشياء واسماؤها . وما دام وضع الأمور الفردوسي هذا لم تقم قائمة له بعد ، فلا بد من شن النضال في سبيل الأشياء بواسطة الكلمات »[1] .

وسوف يستمر مدلول الكلمات في تخفيض قيمة معناها الشائع ؛ وسوف تتابع هذه الكلمات ــ مع الصور والنغمات ــ التحويل الخيالي للعالم ــ الموضوع ، للإنسان والطبيعة . هل نريد تطابق الكلمات والأشياء ؟ ولكن هذا التطابق لن يكون قبل أن تتحقق جميع طاقات الأشياء ، وقبل ان تتوقف « قوة السالب » عن أداء فعلها ؛ وكذلك قبل أن يكون الخيال قد غدا وظيفياً برمته ، عبداً مشرقاً للعقل الأداتي .

لقد تكلمت عن « الفن من حيث أنه شكل للواقع » في مجتمع حر.[2] ولقد كان هذا التعبير ملتبساً . فقد كان القصد منه تسليط الضوء على مظهر أساسي للتحرر : التحويل الجذري للعالم التقني والطبيعي تبعاً للحساسية ــ والعقلانية ــ الانسانية المنعتقة . وأنا ما زلت على رأيي . لكن هذا الهدف دائم ؛ اعني أن الفن لا يستطيع ابداً ، مهما يكن الشكل الذي يتلبسه ، أن يحذف التوتر بين الفن والواقع . فلو حدث ذلك لكان هذا معناه تحقق تلك الوحدة النهائية المستحيلة بين الذات والموضوع ، الصيغة المادية للمثالية المطلقة . وفي ذلك ، لو تحقق ، نفي للحد المتعذر تخطيه الذي يحد قابلية الطبيعة الانسانية للتغيير ، وهو حد بيولوجي وليس لاهوتياً . وإنه لمن الغباء أن نرى في انسلاخ الفن الذي لا نملك فيه خياراً علامة من علامات المجتمع الطبقي البورجوازي (أو أي مجتمع آخر) .

إن لهذا اللغو اصلاً ومصدراً ، وهو أن التمثيل الجمالي **للفكرة أو المثال** ، للعام في الخاص ، يقود الفن إلى تحويل اوضاع خاصة (تاريخية) إلى اوضاع

---

(١) « الدليل » ، ٢٠ آذار ١٩٧٠ ، فرانكفورت ، ص ٣٧ .

(١) في « حول مستقبل الفن » ، دراسات لأرنولد توينبي ولويس خان وآخرين ، نيويورك ١٩٧٠ ، ص ١٢٣ .

عامة ، وإلى تصوير ما لا يعدو أن يكون مصير الانسان في المجتمع القائم وكأنه قدره المأساوي أو الكوني . إن التقاليد الغربية تتضمن الاحتفاء بمأساة غير ضرورية ، بقدر غير ضروري ، وهذه المأساة وهذا القدر غير ضروريين بقدر ما أنهما مرتبطان لا بالشرط الإنساني ، وإنما بالأحرى بمؤسسات وايديولوجيات اجتماعية محددة . لقد سبق ان أشرت إلى عمل فني لا يضارعه عمل من حيث ظهور محتواه الطبقي وبروزه : والحال أنه إذا كانت فجيعة « مدام بوفاري » هي بالبداهة وبلا جدال نتيجة الوضع الخاص للبورجوازيـــة الصغيرة في الاقاليم الفرنسية ، فإننا نستطيع مع ذلك أن ننحي جانباً في مخيلتنا (أو بالاحرى أن « نضع بين مزدوجين ») عند قراءتنا هذه القصة السياق « الخارجي » ، « الخارج عن الموضوع » ، وأن نقرأ فيها رفضاً ونفياً لعالم البورجوازية الصغيرة الفرنسية ، ولقيمها واخلاقيتها وصبواتها ورغائبها ، أي لمصير الرجال والنساء المأخوذين في دوامة فجيعة الحب . ان لفي وسع فلسفة « الانوار » او الديموقراطيـــة او التحليل النفسي أن تلطـــف وتخفف من حدة المنازعات الاقطاعية أو البورجوازية النموذجية ، بيد ان الجوهر المأساوي يظل موجوداً . هذا التداخل ، هذا التفاعل بين العام والخاص ، بين المضمون الطبقي والشكل التجاوزي ، **هو هو** تاريخ الفن .

ربما كان هناك من هذا المنظور « سلم » للفنون يجعل المضمون الطبقي أشد بروزاً في الادب ، وأوهى بروزاً في الموسيقى ، هذا اذا كان في المستطاع في الأصل تمييز هذا المضمون الطبقي وادراكه : إنه تسلسل الفنون التراتبي بحسب نظرية شوبنهاور ! إن الكلمة توصل وتبلغ يومياً المجتمع لأعضاء هذا المجتمع ؛ وهي تستخدم في تسمية الأشياء كما يصنعها المجتمع القائم ويشكلها ويستخدمها . وبالمقابل ، لا تنقل الالوان والأشكال والأنغام هذا النوع من « المعنى » ، وهي بمعنى ما اكثر عمومية ، اكثر « حيادية » فيما يتعلق باستخدامها الاجتماعي ، وعلى النقيض من ذلك نجد الكلمة قابلة لأن **تفقد** بصورة شبه تامة تقريباً معناها التجاوزي ، ونزوعها إلى ذلك يشتد طرداً مع اقتراب المجتمع من مرحلة من

الهيمنة التامة على عالم الإنشاء والكلام . ومن حقنا تماماً آنئذ أن نتكلم عن « التطابق بين الاسم والموضوع » — لكن هذا التطابق تطابق كـاذب ، مفروض ، اعتباطي ، خادع ، واداة سيطرة وهيمنة .

هنا أعود إلى استخدام اللغة الأورويلية[1] كوسيلة تواصل عادية . فهيمنة هذه اللغة على روح الانسان وجسده أشد واقوى من غسل الدماغ التام ، اشد وأقوى من الممارسة المنهجية للكذب بوصفه اداة تحكم وتلاعب . وهذه اللغة ، بمعنى ما ، صحيحة ؛ فهي تعبر بكل براءة عن التناقضات الكلية الحضور التي منها لحمة المجتمع وسداه . وفي ظل النظام الذي اختاره هذا المجتمع لنفسه ، يعني « القتال » في سبيل السلام خوض غمار الحرب في الواقع (ضد « شيوعيي » العالم قاطبة) ؛ و « عقد » الحرب هو بالضبط ما تفعله الحكومة المحاربة — هذا إذا لم يكن العكس بالضبط ، وفي هذه الحال تشدد المذبحة بدلاً من أن تعمم[2] ؛ والحرية هي كل ما تبقى للشعب في ظل الادارة وعهدها — هذا إذا لم يكن نقيضها بالضبط في الواقع ؛ وبالفعل ، إن الغازات المسيلة للدموع ومبيدات الاعشاب « شرعية وإنسانية » حين توجيهها ضد الفيتناميين ، وذلك ما دامت «تسبب لهم من الآلام أقل » من « حرقهم حتى الموت بالنابالم »[3] — وهذا في الظاهر هو الخيار الوحيد المتروك للحكومة الاميركية كما تدعي هذه الأخيرة . وكيفما ارتسمت وتوضحت هذه التناقضات الفظة في وعي الناس ، فإن الكلمة ، كما تحددها الادارة (العامة أو الخاصة) ، تحتفظ مع ذلك بصلابتها ، وتظل فعالة ، عاملية ، تحث على السلوك والعمل

---

(١) هي اللغة التي « ابتكرها » اورويل في روايته « ١٩٨٤ » ، وهي بمختصر الكلام لغة احادية البعد تناسب المجتمع التوتاليتاري .

« المترجم »

(٢) انظر تقرير كورنر عن تشديد القصف في الهند الصينية ، « نيويورك تايمز » ، ٦ تشرين الثاني ١٩٧١ .

(٣) ج . وارن فانر ، السكرتير المساعد لشئون الدفاع عن الأمن القومي ، « نيويورك تايمز » ، ٢٣ آذار ١٩٧١ .

المطلوبين . إن اللغة تستعيد سحرها : يكفي أن يتلفظ ناطق بلسان الحكومة بكلمتي « الأمن القومي » حتى يحصل – عاجلاً أو آجلاً – على ما يريد .

(٦)

عند هذا الطور بالضبط يتوجب على المجهود الجذري ، المبذول في سبيل صيانة وتشديد « قوة النفي » وطاقة الفن الهدامة ، أن يصون ويشدد قوة انخلاع الفن ، أي الشكل الجمالي الذي هو الوسيلة الوحيدة لجعل قوة الفن الجذرية قابلة للايصال .

يطلق بيتر شنايدر ، في مقاله المعنون باسم « الوهم في الرأسمالية الحديثة والثورة الثقافية » ، اسم « وظيفة الفن الدعائية » على هذه التلاقيات مع التجاوز الجمالي :

« سوف يبحث فن الدعاية عن الصور الطوباوية في حواليات حلم البشرية ، وسوف يحررها من الاشكال المنحرفة التي فرضتها شروط الحياة المادية ، وسوف يدل هذه الأحلام على طريق للتحقق باتٍ اخيراً ممكناً الآن .. والمفروض في جمالية هذا الفن ان تكون استراتيجية تحقيق الحلم »[1] .

إن استراتيجية كاستراتيجية التحقيق هذه لا يمكن ابداً أن تكون «كاملة» لا يمكن أن تكون ترجمة إلى الواقع تحول الفن إلى إجراء تحليل نفسي ، وذلك بقدر ما انها استراتيجية حلم على وجه التحديد . فالتحقيق إنما يعني بالأحرى اكتشاف اشكال جمالية قادرة على إيصال امكانيات التحويل التحريري للمحيط الطبيعي والتقني . لكن المسافة التي تفصل الفن عن الممارسة تظل قائمة حتى من خلال هذا المنظور ، ويظل قائماً معها الانفصال بين الاثنين .

---

(١) « الدليل » ، العدد ١٦ ، ١٩٦٩ ، ص ٣١ .

في فترة ما بين الحربين ، وفي الوقت الذي كانت تبدو فيه المناقضة قابلة مباشرة للترجمة إلى عمل ، فكأنها تسير واياه جنباً إلى جنب ، وفي الوقت الذي كان فيه تمزيق أوصال الشكل الجمالي يبدو متضامناً مع فعل القوى الثورية ، صاغ انطونان آرتو في « لنته من الروائع » برنامجاً لإلغاء الفن : فعلى هذا الأخير أن يصبح من شأن الجماهير (الجموع) ، من شأن الشارع ، وبوجه خاص من شأن الجهاز العضوي والجسم والطبيعة . وبذلك يتاح له أن يحرك الرجال والاشياء ، لأنه « لا بد أن تنشق الاشياء وتنفق حتى يكون في الامكان الانطلاق والبداية من جديد » . وإذا كان الثعبان يهتز ويهتاج مع نبرات الموسيقى ، فليس ذلك بسبب « مضمونها الروحي » وإنما لأن الاهتزازات تنتقل إلى جسمه كله عبر الأرض . وقد أوقف الفن هذا التناقل والتواصل ، فـ « ممارسة الفن تعني حرمان هذه الحركة أو تلك من صداها ودويها في الجهاز العضوي » ؛ والحال أنه لا بد من إعادة بناء الوحدة مع الطبيعة : فـ « تحت شعر النص ، نلفي الشعر المحض ، بلا شكل ولا نص » . ينبغي اذن أن نعود إلى الاغتراف من معين الشعر الطبيعي الذي ما يزال ماثلاً في الاساطير الخالدة للانسانية (« تحت النص » ، في « أوديب » سوفوكليس على سبيل المثال) وفي سحر البدائيين . وإعادة الاكتشاف هذه هي شرط مسبق لتحرر الانسان . ذلك اننا « لسنا أحراراً » وما يزال في وسع السماء أن تنقض فوق رؤوسنا . ولم يخلق المسرح إلا ليعلمنا هذا أولاً » . وينبغي على المسرح ، كي يبلغ هذا الهدف ، أن يغادر الخشبة والمنصة ، وأن ينزل إلى الشارع ، باتجاه الجماهير . وينبغي كذلك أن **يصدم** بقسوة ، وان **يقوض** رضى الشعور واللاشعور عن ذاتهما ؛ ان الحاجة ملحة إلى :

« مسرح تبهر فيه الصور الفيزيائية العنيفة وتأسر حساسية المتفرج ، المأخوذ في المسرح وكأنه مأخوذ في دوامة من القوى العليا » .

كانت « القوى العليا » ؛ حتى في ايام آرتو ، من نوع مغاير تماماً ،

وكانت تمسك بتلابيب الانسان لا لكي تحرره وإنما لكي تسترقه وتدمره بفاعلية اكبر . وما هي اللغة وما هي الصور التي يسعها اليوم أن تبهر وتسحر وتأسر النفوس والأجسام التي تحيا في تعايش سلمي مع الإبادة الجماعية والتعذيب والتسميم ، بل تجد في هذا كله نفعاً لها وربحاً ؟ إن آرتو يريد « إصواتاً دائماً : الأصوات ، الضوضاء، الصياح .. بسبب صفاتها الاهتزازية ، ثم بسبب ما تمثله »[1] ؛ بينما نسأله نحن : أليس المستمع ، وحتى مستمع الشوارع « الطبيعي » متآلفاً منذ زمن طويل مع الضوضاء العنيفة والصيحات والصرخات التي هي القسمة اليومية لوسائل الإعلام والملاعب الرياضية والطرقات العامة وأماكن اللهو والتسلية ؟ وهي تعيد انتاج التآلف الاضطهادي مع التدمير بدلاً من أن تضع له حداً .

لقد نقد الكاتب الالماني بيتر هاندكه بـ « الزيف المقرف لروح الجد في المسرح »[2] . ولا يرمي هذا الاتهام إلى إبقاء السياسة بعيداً عن المسرح ، وإنما يبغي فقط أن يشير إلى الشكل الذي يمكنها فيه أن تعبر عن نفسها . وليس قصده تجريم المأساة الاغريقية أو شكسبير أو راسين أو كلايست أو إبسن أو بريشت او بيكيت : فبفضل الشكل الجمالي تخلق المسرحية لديهم عالمها الجدي الخاص الذي **ليس هو** عالم الواقع المعطى ، وإنما بالأحرى نفيه . لكن الاتهام ينطبق ، على **العكس** ، على مسرح الأنصار المعاصر : فهو يمثل **تناقضاً من حيث صفته بالذات** ؛ فهذا المسرح يختلف كل الاختلاف عن المسرح الصيني (قبل المسيرة الطويلة او بعدها) : فهذا الأخير ما كان ينتج في « عالم لعب » بل كان يؤلف جزءاً من الثورة الجارية على قدم وساق فعلاً ، ويوحد بين هوية الممثلين والمقاتلين ، ويحقق الوحدة بين مكان التمثيلية ومكان الثورة .

---

(١) انطونان آرتو « المسرح وقرينه » ، باريس ١٩٦٤ ، على التوالي ص ١١٣ – ١٢٤ – ١٢٣ – ١١٩ – ١٢١ – ١٢٦ – ١٢٤ .

(٢) نقلا عن يارك كارسونكه في « الشارع والمسرح » ، « الدليل » ٢٠ ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٦٧ .

ولا شك في أن « المسرح الحي » مثال جيد على بحث ينقلب على نفسه[1] . فهو يبذل قصارى جهده ليوحد بصورة منهجة بين المسرح والثورة ، بين اللعب والقتال ، بين التحرر الجسدي والروحي ، بين التغير الداخلي الفردي والتغير الاجتماعي في الخارج . لكنه يغلف هذا الاتحاد بنزعة صوفية : « القبلانية ، التعاليم الحسيدية ، الشينغ ١ ، ومصادر أخرى » . وهذا المزيج من الماركسية والصوفية ، من لينين والدكتور ر . د . لينغ ، ليس متفجراً ؛ لكنه يشوه ويحرف الاندفاعة الثورية . فتحرير الجسد والثورة الجنسية حين يصبحان طقساً برسم الأداء (« طقس الجماع الكوني ») ، لا يعود لهما من مكان في الثورة السياسية : فلو كان الجنس رحلة باتجاه الله ، لأمكن القائم ان يغض الطرف عنه حتى في أشكاله المتطرفة . إن ثورة الحب ، الثورة غير العنيفة ، ليست بتهديد جدي ؛ ومهما تكن طبيعة السلطة القائمة ، فإن في مستطاعها على الدوام أن تواجه قوى الحب وأن تتصدى لها . والتسفيل الجذري الذي تم في المسرح ، **من حيث أنه** مسرح ، هو تسفيل منظم ، محسوب ، ممثل ، وليس من المتعذر ان ينقلب إلى نقيضه[2] .

إن غياب الحقيقة قاتل مميت في التمثيل المباشر ، غير المصعد . فبدلاً من ألا يعود الفن « وهمياً » يصبح كذلك مرتين : فالممثلون لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يمثلون الحدث الذي يريدون إظهاره وبيانه ، وهذا الحدث هو نفسه لا واقعي ، هو نفسه تمثيل .

إن التباين بين التثوير الداخلي للشكل الجمالي وتدمير هذا الشكل ، بين

---

(١) انظر « الفردوس الآن » ، تمثيلية جماعية للمسرح الحي ، تأليف جوديت مالينا وجوليان بيك ، نيويورك ١٩٧١ .

(٢) : في صيف ١٩٧١ اعتقلت الحكومة الفاشية في البرازيل افراد فرقة « المسرح الحي » بعد أدائها عرضاً لها أمام معذبي الأرض . كان ذلك في قلب الرعب الذي هو الحياة اليومية لذلك الشعب والذي يرد وينبذ كل اندماج ، مهما كان ، بالنظام القائم . وقد شعرت السلطة بخطر يتهددها حتى أمام تمثيلية التحرر المختلقة تلك . وإني لحريص هنا على أن أعبر عن تضامني مع جوديت مالينا وجوليان بيك وفرقتهما ، فنقدي أخوي ، لأن معركتنا واحدة .

المباشرية الأصيلة الحقيقية والمباشرية المختلفة (وهذا تمييز مبني على التوتر بين الفن والواقع) ، قد لعب هو الآخر دوراً حاسماً في تطور (ووظيفة) « الموسيقى الحية » ، « الموسيقى الطبيعية » . فلكأن الثورة الثقافية لبت نداء آرتو الذي كان يريد أن تحرك الموسيقى الجسد لتجر الطبيعة إلى الثورة . وبالفعل ، إن لهذه « الموسيقى الحية » نقطة انطلاق أصيلة : **الموسيقى السوداء** : صراخ العبيد وسكان الغيتو وغناؤهم[1] . فهذه الموسيقى تحيا من جديد حياة الرجال والنساء السود وموتهم : **إنها جسد** ، والشكل الجمالي فيها هو حركة الألم والضنك والاتهام . لكن ما ان يعزفها البيض ويعيدون صياغتها حتى تتغير تغيراً له دلالته : فالروك الابيض **هو تمثيل** ، مشهد ، والحال أن نموذجه الأسود **ليس** كذلك . فلكأن الصرخات والنداءات ، القفزات والحركات الإيمائية ، تندرج الآن في مجال مصطنع ، منظم ، ولكأنها تتوجه إلى **جمهور من المستمعين** (يتذوقها تذوقاً) . هكذا يتحول ما كان جزءاً من حياة في كل نقطة إلى حفلة ، إلى مهرجان ، إلى اسطوانة تحت الطبع . وتتحول « الفرقة » إلى كيان جامد يمتص الأفراد ويتمثلهم ، كيان « توتاليتاري » في أسلوبه في إغراق الوعي الفردي وفي تعبئة لا شعور جمعي يبقى بلا أساس اجتماعي .

وفي الوقت الذي تفقد فيه هذه الموسيقى تأثيرها الجذري ، نراها تنزع إلى أن تتجمهر : فالمستمعون والمشاركون فيها هم بمثابة جماهير تتدفق على مسرح ، على عرض ، على تمثيلية . صحيح أن المستمعين يساهمون فيها مساهمة فعلية : فالموسيقى تهز الاجسام وتحركها وتجعلها « طبيعية » . لكن الإثارة — بالمعنى الحرفي — الكهربائية تتلبس في كثير من الأحيان مظهر الهستيريا . أفليس التكرار العدائي لإيقاع لا ينى يعيد نفسه إلى ما لا نهاية (وإذا تنوع فإن تنويعاته لا تفتح بعداً آخر للموسيقى) ، والنشاز المصم

---

(١) يحلل بيير لير جدل الموسيقى الداخلية في مقاله « الجاز الحر : تطور أم ثورة » ، في « المجلة الجمالية ، المجلد ٣ و ٤ ، ١٩٧٠ ، ص ٣٢٠ .

للآذان ، والتحريف المكرر المعاد المحفوظ عن ظهر قلب ، ومستوى الضجيج بوجه عام، أليس هذا كله تمثيلاً على قوة الكبت[1] ؟ أليست هذه الحركات المتماثلة ، هذه الأجسام المهزوزة المتلوية المتشنجة التي لا تتلامس ابداً ، أليست بمثابة مراوحة في المكان ذاته ؟ إن ذلك لا يفضي الى اي مكان ، اللهم إلا إلى الدخول في جمهور لن ينبي أن يتفرق . إن هذه الموسيقى لهي — بالمعنى الحرفي للكلمة — تقليد ، محاكاة للعدوان الفعلي ؛ وهي علاوة على ذلك حالة اخرى من حالات التطهر ، من حالات العلاج الجماعي تعتق — بصفة موقتة — من ضروب الكف والكبت . بيد أن التحرر يظل قضية كل فرد على حدة .

(٧)

يبدو التوتر بين الفن والثورة وكأنه لا يقهر ولا يذلل . فليس الفن هو الذي يستطيع بنفسه ، عملياً ، أن يغير الواقع ، كما لا يمكنه أن يخضع للمقتضيات العينية للثورة إلا إذا جحد نفسه وانكرها . لكن في وسعه أن يستمد ، وهو يستمد فعلاً إلهامه ، بل شكله بالذات ، من الحركة الثورية المهيمنة ، لأن الثورة جزء من جوهر الفن . إن الجوهر التاريخي للفن يتأكد في كل طرز من الانخلاع وفي كل ضرب من الاستلاب ، وهو يستبعد أن يكون معنى استعادة الشكل الجمالي إحياء الكلاسيكية او الرومانسية أو أي شكل تقليدي آخر في أي صورة من الصور . فهل يمكننا ، بدءاً من تحليل للواقع الاجتماعي ، أن نتبين ما الأشكال الفنية التي تقابل وتناظر الطاقة الثورية للعالم المعاصر .

---

(١) إن الكبت ، وراء هذه العدوانية الصاخبة ، هو ما يميط عنه اللثام ببالغ الوضوح تصريح لغريس سليك من فرقة جفرسون ايربلان ، اوردته « نيويورك تايمز ماغازين » في ١٨ تشرين الأول ١٩٧٠ . تقول غريس بجدية وكأنها بابا روما : « إن هدفنا الدائم في الحياة هو أن تكون باستمرار أشد صخباً مما في السابق » .

يرى آدورنو أن الفن يجعل من نفسه ، عن طريق انخلاع كامل ، صدى توتاليتارية القمع والإدارة . ونحن نجد أمثـــلة قصوى على ذلك في الموسيقى الذهنية والبنائية وفي الوقت نفسه العفوية واللاشكلية ، لجون كيج او ستوكهاوزن او بيير بوليه .

لكن هل بلغ هذا المجهود من الآن نقطة اللاعودة ، النقطة التي ينفصل فيها الأثر الفني عن بعد الانخلاع والانسلاب ، عن بعد النفي والتناقض ، فلا يعود سوى لعب صوتي أو لعب لغوي ، لا يضر ولا ينفع ، وليس له رسالة يؤديها ، سوى صدمة ما عادت تصدم ، طعنة سيف في الماء ؟ هل صار الأثر الفني إلى ضياع وهلاك ؟

إن الأدب الجذري الذي يعبر عن نفسه لا شكلياً بطريقة مباشرة وعفوية بقدر او بآخر ، يفقد مضمونه السياسي في الوقت نفسه الذي يفقد فيه شكله الجمالي ؛ وعلى العكس من ذلك ينبثق هذا المضمون السياسي من قصائد آلان جنسبرغ أو فرلنغيتي المغرقة في التنظيم والشكلية . وقد وجد الاتهام الاكثر شططاً وتطرفاً تعبيره الملائم في أثر ينحي المضمار السياسي جانباً بسبب نزعته الجذرية على وجه التحديد : فليس لدى صامويل بيكيت من أمل قابل البتة للترجمة إلى مفردات سياسية ، والشكل الجمالي عنده يرد وينبذ كل تسوية ، فلا يبقى من شيء سوى الأدب من حيث أنه ادب لا يحمل سوى رسالة واحدة : الخلاص من الأشياء في وضعها الراهن . كذلك فإننا نلتقي الثورة في غنائية بريشت المدركة درجة الكمال اكثر مما نلتقيها في مسرحياته السياسية ، وفي اوبرا آلبان بيرغ « W zzeck » اكثر مما نلتقيها في الاوبرا المعاصرة المعادية للفاشية .

إن الفن المضاد موقت عارض ، والشكل يعاود انبجاسه ويفرض نفسه . ويظهر تعبير جديد عن السمات الهدامة بالطبيعة للبعد الجمالي ، وبالتعيين للجمال بوصفه حضوراً حسياً لفكرة الحرية . لقد لخص بريشت في خمسة سطور بهجة الحرية وشناعة السياسة .

في أعماقي تستعر معركة : معجزة شجرة
تفاحة مزهرة ضد شناعة خطاب لهتلر .
لكن ما يجلسني الى طاولة الكتابة هو ، بين
الاثنين ، الخطاب وحده .

ان صورة الشجرة تظل ماثلة في القصيدة التي فرض خطاب هتلر ضرورتها والنفور الشديد مما هو كائن هو المحدد للحظة الخلق والإبداع ، وهو مصدر القصيدة التي تشيد بجمال شجرة التفاح المزهرة . ويظل البعد السياسي تابعاً للبعد الجمالي الذي يتلبس بدوره قيمة سياسية . وليس هذا شأن كتابات بريشت فحسب (الذي بات يعد من الآن « كلاسيكياً ») ، بل أيضاً شأن بعض أغاني الاحتجاج الجذري اليوم ــ أو بالأمس كذلك ، وبوجه خاص شعر بوب ديلن وموسيقاه . هكذا يعود الجمال ، هكذا تعود « الروح » لا الجمال الذي نجده في المنتجات الغذائية و « على الورق الصقيل »[1] ، وإنما الجمال القديم المكبوت ، جمال الليدة[2] ، جمال اللحن الشجي : الجمال الغنائي . وإذا ما صار هذا الجمال شكل المضمون الهدام ، فليس ذلك لأنه قد بعث وأعيد إلى الحياة بصورة مصطنعة ، وانما لأن موضوع القمع عاود انبجاسه . إن الموسيقى ، في تطورها الخاص بها ، تقود الاغنية الى نقطة التمرد التي يضع عندها الصوت ، بكلامه وتساوقه ، حداً للحن الشجي ، للطرب ، ويتحول إلى هتاف ، إلى صراخ .

إنه اجتماع الفن والثورة في البعد الجمالي[3] ، في الفن بالذات . الفن

---

(١) إشارة إلى كتاب إلدريج كليفر المشهور : « روح على الورق الثقيل » .

(٢) الليدة : اغنية شعبية المانية . « المترجم »

(٣) يكفي أن نقرأ بعض قصائد جيدة لتطرفيين شبان (أو لتطرفيين قدامى) حتى ندرك الى أي مدى يمكن للشعر ، الذي يظل شعراً ، أن يكون سياسياً حتى في ايامنا نحن . إن قصائد الحب تلك سياسية من حيث أنها قصائد حب : لا حين يجري تسفيلها كما درجت العادة ، وفي ذلك مجرد انفراج لفظي للطاقة الجنسية ، لكن على العكس حين تجد الطاقة الإيروسية تعبيرها المصعد ، الشاعري ــ اللغة الشاعرية التي تجعل من نفسها صرخة احتجاج على ما يصنع في مجتمعنا بالرجال=

القادر الآن على أن يكون سياسياً حتى في حال الغياب (الظاهري) لكل مضمون سياسي ، هذا المضمون الذي لا يبقى فيه غير القصيدة – ولكن حول أي موضوع ؟ لقد حقق بريشت المعجزة ، معجزة تقويل اللغة الدارجة البسيطة ما لا يقال وما يدق عن الوصف ؛ وقصيدته تستحضر ، ولو لهنيهة وجيزة عارضة من الزمن ، صور عالم متحرر ، صور طبيعة متحررة :

العشاق

ألا ترى إلى هذا القرط من الكراكي الطائرة ،
ألا ترى إلى الغمائم في غبطة لقربها منها ،
رفيقات درب نشرت قلاعها للرحيل
– من حياة انطلاق الى أخرى –
محومة على علو واحد وبسرعة واحدة
فلكأن لقاء الطيور والغمائم كان لقاء صدفة .
فهلا شاطرت ، يا كركي ، الغمامة
جمال السماء التي تشق عنانها
بطيرانك اللألاء ،
ألا ليت اللقاء لا يطول بكما ،
يا طير ويا غمامة ، فلا يعاين
أحدكما الآخر ،
إلا كما يخط مخوركما في اديم السماء
خطاً ويمحوه ،

= والنساء الذين يتحابون . وعلى العكس من ذلك يزول ويضمحل الالتقاء بين الحب والهدم، والتحرر الاجتماعي الملازم للطاقة الإيروسية ، حين تخلي اللغة الشاعرية الساح للبذاءة المنظومة (او شبه المنظومة) شعراً . إن ما يسمى بالخلاعية موجود فعلا وواقعاً ، وهو الاعلان والدعاية على أساس الجنس ، حول إيروس استعرائي وصالح للمتاجرة . إن البذاءة والصور الفوتوغرافية الجنسة على الورق الصقيل لها اليوم قيمة تبادلية – وهذا بعكس حال قصيدة الحب « الرومانسي » .

وانتما يهدهدكما تحليقكما المتعانق
اواه ، حبذا لو انكما لا تفنيان
لعل الريح إلى العدم تقودكما
بعيداً أنى يعصف المطر
ويئز الرصاص
فهناك لن يطالكما أذى
هكذا يطير الكركي والغمامة بلا هدى
في مدار الشمس
ومدار القمر شبه الثابتين
لكن واحدهما للآخر :
اين أين تمضي ، أنت ؟ ــ الى لا مكان ،
مم تهرب ؟ ــ من العالم كله ،
أتريدون ان تعرفوا كم مضى
على سيرهما معاً ؟
لم يمض الا القليل . ومتى سيفترقان ؟
ــ عما قريب .
هكذا يخيل للعشاق انهم يستمدون من حبهم قوة [1] .

إن صورة التحرر تكمن في المقطع الذي يصف الكراكي تخترق اديم السماء الخلابة ، بصحبة الغيوم : فالسماء والغيوم ملك للطيور ، بلا تسلسل هرمي ولا سيطرة . والصورة إنما هي قدرة هذه الطيور على الهرب من بؤر الخطر : المطر وطلقات البنادق . والطيور والغيوم في مأمن ما دامت معاً ، تهب نفسها بلا تحفظ لبعضها بعضاً . والصورة خاطفة : فقد تحمل الريح الطيور والغيوم إلى العدم ، لكن هذه الاخيرة ستظل في مأمن ، هاربة من

(١) « أشعار » ، المجلد ٢ ، فرانكفورت ١٩٦٠ ، ص ٢١٠ . وقد كشف اريك كانجلر وثيودور . و . آدورنو دلالة هذه القصيدة (انظر آدورنو « النظرية الجمالية » ص ١٢٣) .

حياة إلى حياة أخرى . حتى الزمن لم يعد له حساب . فلم يمض على لقاء الطيور زمن طويل ، وعما قليل ستفترق . كذلك لم يعد المكان حداً ، لأن الطيور تمضي إلى لا مكان ، وتهرب من كل شيء ومن العالم كله . وفي النهاية ، الوهم : فالحب **يبدو** وكأنه يمنح الديمومة ، يغزو الزمان والمكان ، يفلت من الدمار . لكن الوهم لا يستطيع ان يلغي الواقع الكامن تحته : فالكراكي **موجودة** في السماء ، مع غمائمها . ونهاية القصيدة تنفي الوهم الذي أبانت عنه ، وتؤكد في الوقت نفسه واقعه وتحقيقه . ويكمن هذا التوكيد في لغة القصيدة التي هي نثر جعل من نفسه شعراً في حوار عاهرة وسكران . ليس في هذه القصيدة كلمة واحدة ليست هي من النثر . لكن هذه الكلمات تلتقي وتتحد في جمل وفي أجزاء من جمل تقول وتبين ما لا تقوله وما لا تبينه ابداً اللغة الدارجة . أما « محاضر الضبط » الظاهرية التي تبدو وكأنها تصف الاشياء والحركات ، فيما يشبه الإدراك المباشر ، فتتكشف في الحقيقة عن كونها صوراً لما يتجاوز كل إدراك مباشر : الهرب إلى مملكة الحرية التي هي في الوقت نفسه مملكة الجمال .

يا للجمال من ظاهرة غريبة مثيرة للفضول ، الجمال الماثل في أغنية لبوب ديلن كما في اوبرا لفردي ، في لوحة لإنغر كما في لوحة لبيكاسو ، في جملة لفلوبير كما في جملة لجويس ، في حركة لدوقة غرمانتيس [1] كما في حركة لفتاة من الهيبيين ! والشيء المشترك بين هذا كله هو ، بخلاف التجريد التشكيلي من الصفة الإيروسية ، التعبير عن الجمال من حيث أنه نفي لعالم البضائع والمردود ، من حيث أنه نفي للمواقف والمظاهر والحركات التي يقتضيها هذا العالم .

سوف يستمر الشكل الجمالي في التغير طرداً مع نجاح الممارسة السياسية أو فشلها في بناء مجتمع افضل . وبوسعنا ، في أحسن الأحوال ، أن نتصور عالماً مشتركاً بين الفن والواقع ، ولكنه عالم يحافظ فيه الفن على تجاوزه

---

(١) من بطلات بروست في « البحث عن الزمن الضائع » . « المترجم »

وعلائيته . ولن يتكلم الناس ولن يتكاتبوا شعراً كما تشير الوقائع ، بل سيبقى **نثر العالم** قائماً . وليس في مستطاعنا أن نتصور « نهاية الفن » إلا يوم يكون البشر قد فقدوا القدرة على تمييز الصواب من الخطأ ، والخير من الشر ، والجمال من القبح ، والحاضر من المستقبل . ووضع كهذا سيكون وضعاً من البربرية الناجزة في أوج الحضارة — وهو وضع ينطوي بالفعل على امكانية تاريخية .

لا يستطيع الفن أن يفعل شيئاً ليحول دون صعود البربرية . إنه لعاجز ، بمفرده ، عن ان يحافظ ، في المجتمع وضده ، على شغور ميدانه . والفن منوط ، فيما يتعلق بحمايته وتطوره ، بالنضال في سبيل الغاء النظام الاجتماعي المولّد للبربرية كمرحلة ممكنة ، كشكل ممكن لتقدمه . ويبقى مصير الفن مرتبطاً بمصير الثورة . وبهذا المعنى ، فإن واحداً من المطالب الداخلية للفن أن ينزل الفنان إلى الشارع ليذود عن قضية عامية باريس ، عن الثورة البلشفية ، عن ثورة ١٩١٨ الألمانية ، عن الثورة الصينية أو الثورة الكوبية ، عن جميع الثورات التي تحمل بين طياتها أملاً بتحرر تاريخي . لكن الفنان ، بفعلته هذه ، يغادر ميدان الفن ليدخل في اوسع عالم وأرحبه ، عالم الممارسة الجذرية الذي يؤلف الفن جزءاً تناحرياً منه .

(٨)

تطرح الثورة الثقافية على جدول الأعمال من جديد مشكلات علم جمال ماركسي . وقد بذلت جهدي ، في الاقسام السابقة ، كي أعي هذه الفكرة بمساهمة شخصية متواضعة ، وهي فكرة تستدعي كتاباً آخر كاملاً لمعالجتها بصورة جدية . لكن ما يزال علينا ، في السياق الذي اخترناه لأنفسنا ، أن نطرح من جديد مسألة خاصة : ما المعنى الذي يمكن أن يكون لـ « أدب بروليتاري » (أو لأدب خاص بالطبقة العاملة) ؟ وهل مثل هذا الأدب ممكن اصلاً ؟ إن المناقشة لم ترفع قط ، على حد علمي ، إلى المستوى النظري الذي كانت قد ادركته بين ١٩٢٠ و ١٩٣٥ ، بمشاركة جورج لوكاش

ويوهان . ر . بيشر وأندار غابور من جهة ، وبرتولت بريشت ووالتر بنجامان وهانس آيسلر وارنست بلوخ من الجهة الثانية . وكتاب هيلغا غالاس الممتاز ، « نظرية الأدب الماركسية » ، يعيد رسم معالم تلك المناظرة اثناء تلك المرحلة ويقدم عنها تحليلاً جديداً .

لقد اتفق جميع المشاركين فيها على فكرة أن الفن (موضع الاهتمام العملي هنا هو الأدب) متحدد ، في « مضمونه المطابق للحقيقة » وفي شكله على حد سواء ، بالوضع الطبقي لمؤلفه (لا بالمعنى الضيق للوضع والوعي الشخصيين ، ولكن بالمعنى الذي يشمل علاقة الأثر الأدبي الموضوعية بالموقف المادي والايديولوجي للطبقة المعنية) . وقد خلصوا إلى الاستنتاج بأن أدباً بروليتارياً هو وحده الذي يستطيع أن يقوم بعبء الوظيفة التقدمية للفن وأن ينمي ويطور وعياً ثورياً بوصفه سلاحاً لا غنى عنه في الصراع الطبقي ، وذلك في المرحلة التاريخية التي تكون فيها البروليتاريا هي وحدها في وضع يؤهلها لامتلاك رؤية شاملة للتقدم الاجتماعي ولإدراك ضرورة التغير الجذري واتجاهه (أي « الحقيقة ») .

فهل في مستطاع ادب بروليتاري كهذا أن يستعير الأشكال الفنية التقليدية ، أم أن عليه أن يبدع أشكالاً وتقنيات جديدة ؟ ذلك هو موضوع المناظرة : فبينما يدافع لوكاش ، بصفته ممثل الخط الشيوعي « الرسمي » عصرئذ ، عن صلاحية التقاليد بعد تعديلها وتجويدها ، ولا سيما تقاليد الرواية الواقعية الكبيرة في القرن التاسع عشر ، يطالب بريشت بأشكال مغايرة ومختلفة بصورة جذرية « ــ المسرح الملحمي » على سبيل المثال ــ ويتمنى بنجامان أن يتم الانتقال من الشكل الفني بحصر المعنى إلى وسائل تقنية جديدة مثل الفيلم ، معارضاً بذلك « الأشكال القاصرة المفتوحة بالأشكال البالغة المنغلقة » .

هذه المعارضة الأخيرة ما عادت تبدو ، بمعنى من المعاني ، معبرة تعبيراً دقيقاً عن حدود المسألة : فـ « الاشكال المفتوحة » البريشتية تمت بأوثق الصلة إلى « الأدب التقليدي » اذا ما قورنت بالفن المضاد الراهن . أما لب المشكلة

فيكمن بالاحرى في الفكرة الغامضة عن **تصور بروليتاري للعالم** يمثل ، بحكم طابعه الطبقي الخاص ، الحقيقة التي ينبغي على الفن ان ينقلها ويبلّغها ويوصلها إذا ما اراد نفسه أصيلاً .

« إن الفرضية المفروضة هي وجود تصور بروليتاري للعالم . لكنها فرضية لا تصمد للامتحان حتى ولو كان بدائياً »[1] .

وهذا في آن واحد إثبات لحقيقة واقعة ووجهة نظر نظرية . فإذا كان المفروض بتعبير « التصور البروليتاري للعالم » أن يشير إلى ذلك التصور الذي تتوازعه بوجه عام الطبقة العاملة ، فإنه يكون أيضاً ، في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، تصوراً خاصاً بقسم لا بأس به من الطبقات الأخرى ، ولا سيما الطبقات المتوسطة . ويطلق عليه المعجم الطقوسي للماركسية في هذه الحال اسم الروح الإصلاحية البورجوازية الصغيرة . اما اذا كان يفترض فيه ، على العكس ، أنه يشير إلى الوعي **الثوري** ، الموجود بالقوة أو بالفعل ، فإن هذا الوعي ليست بكل تأكيد اليوم « بروليتاريا » لا بصفة حصرية ولا بصفة رئيسية ، وليس ذلك لأن الثورة ضد الرأسمالية الاحتكارية العالمية تتجاوز ثورة محض بروليتارية وتتميز عنها فحسب ، بل أيضاً لأنه ليس في الإمكان صياغة شروطها وآفاقها وأهدافها (راجع القسم الأول من هذا الكتاب) صياغة صحيحة بمصطلحات الثورة البروليتارية. فنظراً إلى أن الثورة مطالبة ، بأي شكل من الأشكال ، بأن تمثل موضوعاً من مواضيع الأدب ، فإن هذا الاخير لا يمكن إذن أن يكون بروليتارياً خالصاً .

هذه هي على الاقل النتيجة التي تقترحها النظرية الماركسية . ولنعد هنا إلى الأذهان مرة اخرى جدل العام والخاص في مفهوم البروليتاريا : فمصلحة البروليتاريا الخاصة ، من حيث أنها طبقة من طبقات المجتمع الرأسمالي ،

---

(١) غالاس ، المصدر المذكور آنفاً ، ص ٧٣ .

لكن غريبة وأجنبية عنه ، أقول إن مصلحة البروليتاريا الخاصة (تحررها الذاتي) تتطابق مع المصلحة العامة ، فهي لا يسعها أن تحرر نفسها من دون أن تلغي ذاتها كطبقة ومن دون أن تلغي معها سائر الطبقات . وليست المسألة مسألة « مثل اعلى » ، وإنما مسألة دينامية الثورة الاشتراكية بالذات . ومن هنا كانت أهداف البروليتاريا **من حيث انها طبقة ثورية** متجاوزة لنفسها بنفسها ؛ هذه الأهداف تاريخية وعينية ، يتجاوز مضمونها الطبقي المضمون الطبقي للطبقة الخاصة التي تتطابق هذه الأهداف معها . وإذا كان مثل هذا التجاوز صفة جوهرية في كل فن ، يترتب على ذلك أن الاهداف الثورية يمكن ان تجد تعبيرها في شكل الفن البورجوازي أو في أي شكل آخر .

لا مفارقة إذن ولا شذوذ في كون « الأدب البورجوازي » هو الذي يوسع صدره للموضوعات البروليتارية المحضة . وغالباً ما تقترن هـذه الموضوعات بثورة لغوية تستبدل أسلوب الطبقة الحاكمة بأسلوب البروليتاريا ، من دون أن تفجر الشكل التقليدي سواء كان رواية أم دراما . ومن الممكن أيضاً ، على العكس من ذلك ، أن يتلبس المضمون الثوري البروليتاري شكل لغة الشعر المسمى بالتقليدي ، وهي لغة مفخمة ، أسلوبية ، وتلك هي حالة « اوبرا القروش الاربعة » و « مهاغوني » و « غاليله » بريشت بنشرها « الفني » .

لقد حاول المدافعون عن ادب بروليتاري خالص أن يصونوا هذه الفكرة وأن يحافظوا عليها بصياغتهم معياراً عاماً يمكن بفضله تنحية الراديكاليين البورجوازيين « الاصلاحيين » جانباً : أعني تجلي القوانين الأساسية التي تسيّر المجتمع الرأسمالي في الأثر الفني . وقد رأى لوكاش بنفسه في ذلك وسيلة لتعرّف الادب الثوري الاصيل . لكن مطالبة الفن بذلك مناهضة لطبيعة الفن بالذات . فلا مجال البتة لأن تجد البنية والدينامية الاساسيتان للمجتمع نمطاً حواسياً ، جمالياً ، للتعبير ؛ وهما تؤلفان ، بمقتضى النظرية الماركسية ، الماهية الكامنة خلف الظواهر ، تلك الماهية التي لا يستطيع سوى التحليل

في حد ذاته بتخطي الهوة بين الحقيقة العلمية والظاهر الجمالي . ومهما سعينا إلى أن ندخل على التمثيلية أو الرواية المونتاج والوثائق والريبورتاج ، وأن نجعل منها جزءاً أساسياً من الشكل الجمالي (كما هو شأن بريشت) ، فإن هذا الجانب يبقى دوماً تابعا .

لا مراء في أن الفن يستطيع ، بمساهمته في تغيير الوعي السائد ، أن يكون سلاحاً في الصراع الطبقي . لكن تظل نادرة جداً مع ذلك حالات العلاقة الشفافة بين الأثر الفني والوعي **الطبقي** المناظر له (موليير ، بومارشيه ، ديفوي) . فالفن ، بحكم قدرته على الهدم ، يمت بصلة وثيقة إلى الوعي الثوري ، ولكن بمقدار ما يكون الوعي السائد لطبقة من الطبقات إثباتياً ، موجباً ، مندمجاً ، باهتاً ، يقف الفن في موقف المعارض له . وحين لا تكون البروليتاريا ثورية ، لا يمكن للأدب الثوري أن يكون ادباً بروليتارياً . كما أنه لا يستطيع في هذه الحال أن « يستقر » في الوعي السائد غير الثوري : **فالقطيعة** ، **القفزة** ، هي وحدها القمينة بالحيلولة دون انبعاث « وعي » كاذب في مجتمع اشتراكي .

إن الثورة الثقافية الراهنة تزيد من حدة السفسطات التي تحيط بها عادة فكرة الادب الثوري نفسها . والعداء الثابت الذي يكنه اليسار الجديد للفكر والعقل يساهم في المطالبة بأدب خاص بالطبقة العاملة يعبر عن مصالح الشغيلة وعن انفعالاتهم الحقيقية . فهو يلوم على سبيل المثال « أحبار اليسار المثقفين » على « جماليتهم الثورية » ، وينهال بالتقريع على « طغمة معينة من الشراح » الذين يأخذ عليهم أنهم « أعظم خبرة في تقييم انعكاسات كلمة من الكلمات ومعانيها الدقيقة وأوهن التزاماً بالثورة التي هي قيد الإنجاز[1] » . والعداء المستحكم للفكر ، والعقل يمقت فكرة إمكانية ارتباط الموقف الأول بالثاني وتغذيته له ، وإمكانية مشاركته في ترجمة العالم إلى لغة جديدة قادرة على

---

(١) : إرفن سيلبر في «الغواردديان» ، عدد ١٣ كانون الاول ١٩٦٩ .

تبليغ رسالة المطالب التحررية الجديدة كل الجدة .

إن هؤلاء الناطقين بلسان الايديولوجيا البروليتارية يرون في الثورة الثقافية ألهية من ألهيات الطبقة المتوسطة . وقصر نظرهم هذا يحملهم حتى على المجاهرة بأن « هذه الثورة لن يكون لها من معنى » إلا « يوم تبدأ بإدراك القيمة الثقافية الفعلية لآلة غسيل ، على سبيل المثال ، بالنسبة إلى أسرة عمالية عندها اطفال صغار السن » . وبهذه الروح نفسها يطالبون فناني الثورة بأن « يلتقطوا انفعالات هذه الاسرة يوم تسلّم لها الغسالة الآلية ، هذه الغسالة التي هي موضوع نقاش في الأسرة منذ شهور ، والتي كان لا بد من اتخاذ الاستعدادات لشرائها ... »[1] .

إن هذا لكلام رجعي من وجهة النظر الفنية ، وكذلك من وجهة النظر السياسية . وليست انفعالات الأسرة العمالية هي الرجعية هنا ، وإنما فكرة اتخاذها نموذجاً لأدب أصيل في جذريته واشتراكيته : فما يراد له أن يكون مداراً لثقافة ثورية جديدة لا يعدو أن يكون في الواقع تكيفاً مع الثقافة القائمة .

لا مراء في أنه يتوجب على الثورة الثقافية ان تعترف وأن تطيح بهذا المناخ السائد في الأسرة العمالية ، لكن لن تتوصل إلى ذلك عن طريق « الاستماع » للانفعال الذي يحدثه تسليم غسالة كهربائية . بل إن مثل هذا الالتصاق يديم ويؤبد على العكس « المناخ » السائد .

إن توحيد هوية الأدب الثوري بهوية ادب بروليتاري يظل موضوع جدل ونقاش ، حتى ولو أعفي من مهمة « الاستماع » للانفعالات السائدة ، وربط على العكس بوعي القسم **الاكثر تقدماً** من الطبقة العاملة . فهذا الوعي لن يعدو أن يكون في هذه الحال وعياً سياسياً تتشاطره أقلية محدودة فقط من الطبقة العاملة : وإذا ما اراد الفن والأدب ان يكونا انعكاساً لهذا الوعي المتقدم ، فعليهما أن يعبرا عن الشروط الحقيقية لصراع الطبقات وعن الآفاق

---

(١) : إرفن سيلبر في « الغواردیان ، عدد ٦ كانون الاول ١٩٦٩ ، ص ١٧ .

الواقعية للاطاحة بالنظام الرأسمالي . بيد أن مضموناً سياسياً إلى هذا الحد الفظ يناوىء بالطبع تحويله جمالياً — ومن هنا كان الاعتراض المبرر على « الفن الخالص » . لكن هذا المضمون يتعارض أيضاً مع ترجمة اقل نقاء وصفاء إلى الفن ، وبعبارة أخرى يتعارض مع ترجمته إلى فن يستحضر عيانية الحياة والممارسة اليوميتين . وإنما على هذا الأساس انتقد لوكاش رواية عمالية لها صفة تمثيلية بالنسبة إلى العصر ، يتكلم ابطالها عند المساء حول الطاولة العائلية لغة المندوبين إلى موتمر من موتمرات الحزب[1] .

إن أدباً ثورياً تكون الطبقة العاملة ذاته وموضوعه في آن واحد ، ويكون الوريث التاريخي والنفي المطلق للادب « البورجوازي » ، هو أدب ما يزال ينتمي إلى مستقبل غير معلوم وغير موكد .

لكن ما هو صحيح في فكرة الفن الثوري من منظور الطبقات العاملة في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، ليس صحيحاً لا بالنسبة إلى وضع الاقليات العرقية في هذه الأقطار ذاتها ، ولا بالنسبة إلى جماهير العالم الثالث . لقد سبق أن ضربت مثال الموسيقى السوداء . وهناك أيضاً أدب ، وبوجه خاص ، شعر اسود ، لدينا كل المسوغات لأن نصفه بأنه ثوري لأنه يتكلم باسم تمرد شامل معبر عنه بالشكل الجمالي . إنه ليس أدباً « طبقياً » ، ومضمونه الخاص يتطابق مع مضمونه العام ؛ فما يميز الوضع الخاص للأقليات العرقية المضطهدة يتمثل في حاجة هي أعم الحاجات إطلاقاً : وجود الفرد والجماعة بالذات بصفة **كائنات انسانية** . ومهما يكن مثل هذا المضمون سياسياً إلى غير ما مثل هذا المضمون سياسياً إلى غير ما حدود ، فإنه لا يتعارض والاشكال التقليدية .

---

(١) غالاس، المصدر الأنف الذكر، ص ١٢١. هذا وقدلفت شيوعي كان يشارك في المناقشة الانظار بحق إلى انه من الافضل تسمية الاشياء بأسمائها والكلام هنا عن الدعاية لا عن الفن أو الادب .

خاتمة

إن القاسم المشترك للنزعة الجذرية المشتطة التي تشوب جزءاً من الثورة الثقافية هو عداء الفكر والعقل الذي يشاطرها فيه الممثلون الاكثر رجعية **للنظام القائم** ؛ وتمرد الثورة الثقافية على العقل ليس موجهاً ضد عقل الرأسمالية ، ضد عقل المجتمع البورجوازي فحسب ، بل أيضاً ضد **العقل في ذاته** . وكما أن النضال الذي هو بالفعل ملح وعاجل ضد تكوين ملاكات النظام في الجامعات ينحرف إلى نضال **ضد الجامعة** ، كذلك يفضي تدمير الشكل الجمالي إلى تدمير الفن . ففي كلا فرعي الثقافة الغربية يهدد الانعزال والتنسك إزاء الواقع القائم بلا ادنى ريب بتشييد « أبراج عاجية » ، لكن من الممكن أن يفضيا أيضاً وهما يفضيان فعلاً إلى شيء تتضاءل اكثر فاكثر قدرة **النظام** على احتماله وغض النظر عنه : أقصد استقلال التفكير والحساسية .

لكن الحركة تظل ، بالرغم من كل نزعتها الجذرية التي هي في غير محلها ، قوة المعارضة الاكثر تقدماً . فقد نمت هذه الحركة وطورت اندفاعة التمرد في مجالين جديدين كبيرين : فقد أضافت من جهة اولى إلى الكفاح السياسي تشكيلة الحاجات غير المادية (الحاجات إلى تقرير المصير الذاتي ، إلى علاقات إنسانية غير مستلبة) ، ومن الجهة الثانية البعد الفيزيولوجي للوجود ، أي ميدان الطبيعة . والحقل المشترك بين هذين المجالين هو تحرر الحساسية . فعلى تحرر الحساسية هذا يترتب إدراك جديد العالم تغتصبه مقتضيات

المجتمع القائم ، وبواسطته تتاح امكانية تثمين الحاجة الحيوية إلى تغيير شامل . والشيء الذي أصبح لا يطاق ولا يحتمل في هذا العالم هو وحدة المتناقضات العنيدة التي لا تلين لها قناة : اللذة المرتبطة بالهول والرعب ، الهدوء المقترن بالعنف ، التمتع المترافق بالتدمير ، الجمال الممزوج بالقبح ، وفي هذا كله جرح لنا ونيل منا بصورة ملموسة لمس اليد في المحيط الذي يكتنف حياتنا اليومية . ولا يجوز للازدراء العام بحق المتباهين بحب الجمال وتذوق الفن من الجهلة الأدعياء أن يشغلنا ويصرفنا بعد اليوم عن صياغة ما نحس به : أعني شعورنا بأن وحدة المتناقضات البغيضة (التظاهرة الاكثر عيانية والأقل تصعيداً للجدل الرأسمالي) قد أصبحت العنصر المحرك **للنظام** ؛ وعلى هذا تترتب ضرورة تحويل الاحتجاج على وضع الأشياء القائم هذا إلى سلاح سياسي .

وسيكون النصر قد بات أكيداً محققاً يوم يوضع حد للتكافل البذيء بين المتناقضات : التكافل بين حركة البحر الإيروسية (أمواج تتدافع الى الأمام كقطيع من الذكور ، تحطم نفسها بنفسها وتتأنث ، يداعب كل منها الآخر ، وتلعق الصخور) وبين صناعات الموت المزدهرة على شطآنه ، بين طيران النوارس الابيض وبين رمادية الطائرات الحربية ؛ بين صمت الليل وسكونه وبين فرقعة الدراجات النارية .. يومئذ ، يومئذ فقط سيمتلك الرجال والنساء المقدرة على حل النزاع بين الأحياء السكنية الفخمة ومدن الصفيح ، بين الإنجاب والتقتيل الجماعي . ولن يكون ممكناً على المدى الطويل تأبيد ثنائية السياسة والجمالية ، العقل والحساسية ، العمل حول المتاريس وأفعال الحب . صحيح أن المتاريس تظاهرة للحقد ، لكنه حقد على كل ما هو غير إنساني ، وهذا الحقد الصاعد « من أسفل البطن » مركب أساسي من مركبات الثورة الثقافية .

إن هذه الثورة الثقافية لا تتمتع بأي شعبية إطلاقاً ، والناس يبغضونها ، و « الجماهير » تزدريها وتحتقرها . ولعل هذه الجماهير تحس بأن التمرد يشن بالفعل حرباً على النظام في مجمله ، على جميع التابوات والمحرمات

المتعفنة ، وبأنه يعرض للخطر ضرورة وقيمة نشاطاتها وتسلياتها والازدهار المحيط بها . هذا الكره للأخلاق الجديدة نلقاه باستمرار في كل مكان : كره المواقف الأنثوية ، كره ازدراء الأدوار التي يوزعها **النظام**، كره ينصب على المتمردين لأنهم يبيحون لأنفسهم ما يتوجب على الآخرين أن يقمعوه وأن يمنعوه عن أنفسهم .

لقد كان ولهلم رايش على حق حين رأى في قمع الغرائز مصدراً هاماً من مصادر الفاشية ؛ لكنه كان على خطأ ، بالمقابل ، حين رأى في التحرر الجنسي وسيلة للتغلب على الفاشية . فمن الممكن أن يصل التحرر الجنسي إلى أبعد حدود يمكن تصورها من دون أن يهدد مع ذلك النظام الرأسمالي في طوره المتقدم (الطور الذي يمكن فيه تقليص كمية العمل الجسماني ومدة يوم العمل تدريجياً) . وحين يتم بلوغ هذا الطور لا يعود تحرير الغرائز قوة تحرير اجتماعي إلا بمقدار ما تتحول الطاقة الجنسية إلى طاقة إيروسية موجهة نحو تغيير نمط الحياة على الصعيد الاجتماعي وعلى الصعيد السياسي . وعلى كل حال ، إن لروح الخنوع والعدوانية وتشبه الشعب بحكامه أساساً عقلانياً اكثر منه غريزياً في الوقت الراهن : فالزعماء يوزعون السلع ، ويعرضون بصورة دورية جثث الأعداء الذين قد يهددون التوزيع النظامي لهذه السلع عينها . ذلكم هو الأساس الذي يتكون عليه ويتنظم الحقد على المتمردين والعداء لهم . ولن يغدو التمرد الغريزي قوة سياسية إلا يوم يواكب تمرد العقل ويسترشد به في الرفض المطلق لإي مساعدة يقدمها الفكر ــ والطبقة المفكرة ــ **للنظام** ، في الوقت الذي تكون فيه قوة العقل النظري والعقل العملي معبأة ومستنفرة لصالح التغيير .

إن صنمية البضائع تتعزز وتتوطد يوماً بعد يوم كما تشير الدلائل ، ولن يتمكن من القضاء عليها سوى رجال ونساء هدموا الواجهة التكنولوجية والايديولوجية التي تخفي ما يجري وما يحاك وما يتابع ، وتحجب عن الأنظار عقلانية المجموع المرضية؛ رجال ونساء صاروا أحراراً في إطلاق العنان

لحاجاتهم الذاتية وفي بناء عالم يكون من صنع أيديهم متضامنة متكافلة . وحيثما ينته التشيؤ يبدأ الفرد ، الذات الجديدة لإعادة البناء من الجذور . وتكوين هذه الذات سيرورة تحطم الإطار التقليدي للنظرية والممارسة الجذريتين . وأساس افكار الثورة الثقافية وأهدافها إنما يكمن في واقع الوضع التاريخي . ولهذه الافكار والأهداف حظ فعلي في أن تتجسد عينياً وفي أن تطال كل شيء ، ولكن هذا بشرط أن ينجح المتمردون في إخضاع الحساسية الجديدة (التحرر الشخصي لكل فرد) لانضباط فكري صارم . فمثل هذا الانضباط هو وحده القادر على حماية الحركة من صناعة أوقات الفراغ ، وعلى تجنيبها مصح المرضى العقليين عن طريق تركيز الطاقات في تظاهرات موائمة اجتماعياً . وكلما بدت قوة المجموع الخارقة ، المحالة ، وكأنها تبرر عفوية أي فعل من افعال المعارضة ، مهما كان هداماً لذاته بذاته ، توجب على اليأس والتحدي بالمقدار نفسه أن يلزما نفسيهما بانضباط **وبتنظيم** سياسيين . إن الثورة لا تكون ثورة بدون عقلانيتها الخاصة بها . وقد تساعد أفعال الهيبيين من قهقهة تحريرية ومن عجز جذري عن حمل اللعبة الدامية لـ « عدالة القانون والنظام » على محمل الجد، قد تساعد على نزع القناع الايديولوجي ، لكنها تترك البنية التي يخفيها ويحجبها عن الأنظار سليمة لم تمس . فهذه البنية لا يمكن أن تنهار وتتقوض إلا على أيدي اولئك الذين ما يزالون يغذون نظام العمل القائم ، ويؤلفون قاعدته البشرية ، ويعيدون إنتاج ربحه وقوته . وهم يضمون قسماً لا ينى في تعاظم مستمر من الطبقات المتوسطة والانتلجانسيا . وفي الساعة الراهنة لا يتحرك ولا يتمتع بالوعي سوى قسم ضئيل من هؤلاء السكان الهائلي التعداد . وعلى عاتق الجماعات الجذرية التي ما تزال منعزلة يقع عبء المساهمة في توسيع نطاق هذا التحرك وهذا الوعي .

إن تحرير **الوعي** يظل هو المهمة الأولى . وبدونه يبقى كل تحرير للحواس وكل فعالية جذرية أعميين ، مقضياً عليهما بالفشل . والممارسة السياسية ما تزال مرهونة بالنظرية : التربية ، الإقناع ، العقل ؛ وهذه لا يسع غير النظام

وحده ان يستغني عنها .

ثمة حجة أخرى ما تزال تُشهر في وجه هذه النزعة « العقلية » او « الفكرية » : فلنناقشها . جوهر هذه الحجة ما يلي : إن تشديد اللهجة على النظرية والتربية قد يحوّل ويبعد الطاقات الذهنية والجسمانية عن الحلبة التي ستدور فيها رحى الحرب الحاسمة ضد المجتمع القائم ، أي الحلبة السياسية . وبذلك تكون المعطيات الاقتصادية والاجتماعية قد أُبدلت إلى معطيات ثقافية ؛ ويكون التركيز قد انصرف إلى المشكلات الثقافية المجردة في الوقت الذي توشك فيه القوة الوحشية العارية أن تبيد حركات المقاومة اليائسة في العالم قاطبة . وهكذا لا يعدو تعبير « الثورة الثقافية » الدعي المستعار من بلد تمثل فيه هذه الثورة بالفعل حركة جماهيرية ، لا يعدو أن يكون تمرداً فردياً ، خاصاً ، ايديولوجياً ، ومن ثم فهو بمثابة إهانة لآلام الجماهير .

لقد غدت صيغة « لنجلس ونتحاور » بحق موضوع مزاح وتنكيت . فهل يمكن أن يدور حوار مع البنتاغون إلا حول الفاعلية المقارنة بين أسلحة الموت وأسعارها ؟ إن في وسع وزير الداخلية أن يتحاور مع وزير المالية ، وفي وسع هذا الأخير أن يتحاور مع وزير ثالث ومستشاريه ؛ وفي وسع الجميع أخيراً أن يتحاوروا مع مدراء الشركات الكبرى . إنه حوار بين المحارم ، لأن جميع هؤلاء الناس متفقون على مسلمة أساسية هي ضرورة تعزيز بنية السلطة القائمة . والحال أن كل محاولة لمناقشة بنية السلطة ومحاكمتها « من الخارج » لا تعدو أن تكون فكرة ساذجة . فأنت لن تجد آذاناً صاغية إلا بقدر ما يمكن أن تترجم الأصوات إلى اقتراع قمين بأن يضع على رأس بنية السلطة بالذات جهازاً آخر له شواغل مماثلة تماماً .

إن هذه لحجة لا تقاوم . فلقد كان برتولت بريشت يرى أن الكلام عن الاشجار في الزمن الذي كنا نحيا فيه جريمة . ولكن الأمور زادت سوءاً على سوء منذ ذلك الحين . فمجرد **الإشارة** الى امكانية التغيير هي اليوم جريمة ، وهذا في الوقت الذي انقلب فيه مجتمعنا إلى عنف منزل منزلة المؤسسة ،

ينهي في آسيا المجزرة التي بدأها مع تصفية الهنود الاميركيين وإبادتهم .

أليست القوة العارية ، الخالصة ، لهذه الوحشية في مأمن ومنجى ، لا يمكن للكلمة الملفوظة أو المكتوبة أن تطالها لتضعها في قفص الاتهام ؟ أليست الكلمات الموجهة إلى أولئك الذين يضعون هذه القوة موضع تطبيق هي عينها الكلمات التي يستخدمونها للدفاع عنها وتبريرها ؟ إن ثمة طوراً يبدو فيه كل نشاط يشن ضد هؤلاء مبرراً ، حتى ولو كان أحياناً غبياً . فالنشاط والعمل يزعزعان ، ولو لهنيهة من الزمن دعائم عالم الاضطهاد المقفل . والتصعيد يؤلف بالطبع جزءاً من النظام ويعجل بالثورة المضادة إذا لم تُهدِّأ الأمور في اللحظة المناسبة .

لكن هناك ، حتى في إطار هذا النظام ، وقت للنقاش ووقت للعمل . وهاتان اللحظتان يحددهما التكوكب العيني للقوى الاجتماعية . فعندما يكون العمل الجماهيري الجذري منعدماً ، وحين يكون اليسار في حالة من الوهن الشديد ، فإن على هذا اليسار أن يعرف كيف يحد بنفسه أعماله ونشاطاته . عليه أن يعيد تجميع صفوفه وأن يعيد النظر من جديد في أساليبه وطرائقه ، وذلك بدلالة القيود والعقبات التي ينصبها امام التمرد تشديد القمع وتركز القوى المدمرة في يدي بنية السلطة . لا مناص ولا معدى عن إنشاء استراتيجية متكيفة مع النضال ضد الثورة المضادة . والمآل مرهون إلى حد كبير بصلابة الجيل الجديد وعناده وبالتسويات التي قد يقبل بها . فعلى الشبان أن يتعلموا كيف يعيدون رصّ صفوفهم بعد الهزيمة ، وكيف ينشئون ، بالتوازي مع الحساسية الجديدة ، عقلانية جديدة ، وكيف يتابعون تلك المسألة البعيدة المدى والطويلة الأمد ، مسألة التربية التي هي الشرط اللازم والضروري لكل عمل سياسي على نطاق واسع . ذلك أن الثورة القادمة ستكون من صنع اكثر من جيل واحد ، وقد تستغرق « الازمة النهائية للرأسمالية » ما يقارب قرناً كاملاً من الزمن .

الفهرس

١ ــ اليسار في ظل الثورة المضادة .	٥
٢ ــ الطبيعة والثورة .	٦٩
٣ ــ الفن والثورة .	٩٣
٤ ــ خاتمـــة .	١٤٦

هـذا الكتابُ

في الوقت الذي توجه فيه الرأسمالية اهتمامها الاول الى اخماد حرائق التمرد والثورة داخل حدودها وخارجها على حد سواء، تبدو انها شرعت باعادة تنظيم نفسها تحسبا وتحاشيا لخطر مـا يزال غامضا لكنه كلي الحضور ، خطر حركة تعانق لاول مرة في التـاريخ الكرة الارضية بأسرها . وازاء الاعراض الاولى لهـــذا الخطر المستطير تنكب الرأسمالية على تأسيس الثورة المضادة وتكريسها . هـــذا لا يعني انها لم تعد تنجب بنفسها حفاري قبرها ، ولكن وجوههم تختلف اليوم عما كان متوقعا ، كما لم يعد شاغلهم الاوحد تغيير العلاقات الانتاجية والطبقية ، وانما ايضا العلاقات بين الانسان والطبيعة ، طبيعته الذاتيـــة والطبيعة المحيطة به ، وكلتاهما على حـــد سواء عرضة اليوم لتخريب منهج .

في هذا الكتاب الجديد الهام يرسم ماركوز ، عبر تحجر النظريات الثورية المعهودة ، المعالم العريضة لحساسية ثوريـــة جديدة .

الثمن ٤٠٠ ق. ل – ٥٥٠ ق. س – ٨٠٠ مليم